

النِّدْيَةُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالطَّبِيعَةِ
المصارعة وكذا المصاحبة المتعين... من أجل التعايش

د. صلاح الدين الشامي
رئيس قسم بحوث في جامعة صنعاء

نبذة عن الكاتب

الأستاذ الدكتور صلاح الدين على الشامى
رئيس قسم الجغرافيا بجامعة صنعاء .
من مؤلفاته .

- ١ - السودان دراسة جغرافية .
- ٢ - جغرافية الوطن العربى .
- ٣ - الجغرافيا دعامة التخطيط .
- ٤ - مبادئ الجغرافيا السياسية .
- ٥ - الرحلة عين الجغرافى المبصرة .
- ٦ - الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة .
- ٧ - دراسات فى النيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإنسان والطبيعة ، علاقة ومواجهة

يواجه الإنسان الطبيعة لأن هذا هو مصيره ، وهو يطلب التعايش وترسيخ الأمن ، على حضوره ، وعلى حركة حياته ، وعلى مصيره في المكان والزمان . ولا تعرف الطبيعة السكون أو الثبات في المكان أو في الزمان . بل قل هي تتغير في المكان ، بأكثر من معدل على المدى القصير ، وبأكثر من معدل آخر على المدى الجيولوجي الطويل . ولا يعرف الإنسان بدوره السكون أو الثبات في المكان أو في الزمان . بل قل هو يباشر التغير ويتطلع إليه ، ويصطنعه بمعدلات متنوعة ، تتفاوت من مكان الى مكان آخر ، ومن عصر الى عصر آخر .

وتسفر المواجهة بين المتغير والمتغير ، عن ديناميكية التغير والمتغيرات . ولا تؤدي هذه الديناميكية الى شيء أهم من توالي وتداعي المتغيرات ، في إطار حسابات دقيقة تفرضها موجبات التغير ، التي تصدر عن فعل الطبيعة ، والتي يلتزم بها ويصطنعها حضور الإنسان وفعله . وبموجب هذه الديناميكية تكون المواجهة بين الإنسان والطبيعة في أي مكان ، وفي كل زمان ، حتمية . بل قل أنها تكون في إطار علاقة لا تنفصم ، وفعل وتفاعل متبادل بينهما . ولا الإنسان يستدبر الطبيعة ، ويترك لها أن تتخلله أو تتلاعب بمصيره . ولا الطبيعة تصرف النظر عن حضور الإنسان وتترك له أن يعيث بها أو أن يعيث في الأرض فساداً .

وهكذا تبدو المواجهة بين الإنسان والطبيعة أمراً مقضياً . بل هي قدر الإنسان

الذي لا يملك التهرب منه أبداً . وصحيح أنه قد يهرب أو يتهرب من هذه المواجهة لبعض الوقت ، ولكن الصحيح أيضاً أنه لا يملك التهرب منها كل الوقت . وما من شك في أن محصلة هذه المواجهة الإيجابية أو السلبية ، هي التي تحدد واقعية وجدوى التعايش في المكان والزمان . بل وهي التي تضع الإنسان في الوضع الأنسب للسيادة على الأرض^(١) ، في المكان والزمان .

الرؤية الجغرافية للمواجهة

هذا ، ولقد تفاوتت هذه الرؤية في وجهات نظر الاجتهاد الجغرافي تفاوتاً شديداً . واختلفت الآراء واستغرقت في الجدل والحوار ، وانكبت في المغالطات والمبالغات والتناقض الشديد ، وهي تطالع أبعاد المواجهة التي تحتمل وتستحكم بين الإنسان والطبيعة في المكان من عصر الى عصر آخر . بل قل أن الاجتهاد الجغرافي الذي تطلع وتقصى حقيقة المواجهة وعاین جولات المصارعة بين الإنسان والطبيعة ، قد أصاب عندما أدرك حتمية العلاقة بينهما ، وحتمية هذه المصارعة ، ولكن أخطأ عندما انحاز الى طرف من أطراف هذه المصارعة .

وافترقت من حيث المبدأ الذي انكب في خطيته الانحياز الى أحد الطرفين ، وجهات النظر الجغرافية المختلفة ، أو المتناقضة ، على دربين متباينين . ولم يلتزم أي منها على الدرب الذي مضى فيه ، وهو ينحاز ولا يتجرد من خطيته الانحياز ، بتصور يجرد الطبيعة من واقعية التغير ، أو بتصور يحرم الإنسان من محصلة ونتائج وجدوى هذا التغير . بل قل أن كليهما قد أقر واقعية تغير الطبيعة وتغير الإنسان ، وكيف أنها لا يلتزمان أبداً بالثبات . وتسجل الطبيعة التغير في إطار ديناميكية التغير وسننه . ويتغير الإنسان ويباشر التغير ويتلمس موجباته ويحني ثمراته من غير خروج عن سنن ديناميكية هذا التغير .

١ - سيادة الإنسان على الأرض ، لا تعني فقط تسخير مواردها والسيطرة على مسيرة حركة الحياة وفرض الإرادة على الحضور الحيوي بما في ذلك النبات والحيوان . بل إنها تعني علاوة على ذلك كله ، أن يملك الإنسان حرية الإرادة ، في إطار حد المصالحة بينه وبين الطبيعة ، حيث يطلب ويحصل على ما ينبغي ولا يقنع أبداً بما تقدمه الطبيعة إليه .

وقل ، لقد ذهب كل فريق من الفريقين المتناقضين ، متحمساً لرؤية هذه المواجهة التي تتكرر بين الإنسان والطبيعة ، من زاوية خاصة . وتضيق هذه الزاوية على من يطل على هذه المواجهة الخناق ، حتى يتصور بموجب هذا الحماس الغارق في الانحياز عناصر الجسم التي تسفر عن نتائج وجدوى ، تضع التعايش ، في إطاره الأنسب ، في المكان والزمان . كما يتصور أيضاً أسباب الجدل ومبررات الاختلاف وموجبات التناقض الحقيقي بينهما . ثم يمضي هذا التصور فيجسد أبعاد التردّي في الخطأ ، الذي يقع فيه كل طرف من أطراف ، هذا التناقض الفكري الجغرافي ، من غير تحفظ .

وما من شك في أن هذا الحماس غير المتحفظ ، قد أثار وألهب الجدل والحوار ، حتى حمى وطمس النقاش الجغرافي العلمي المتعصب ، بين زمرة الباحثين الجغرافيين . وما من شك ، في أن هذا الجدل الحامي والنقاش التعصب ، قد أضاف الى الرصيد الجغرافي العلمي المكتوب في بحوث ومقالات إضافات جيدة ومفيدة . ولكن الذي لا ينبغي التشكيك فيه أبداً ، هو التمادي في ممارسة هذا الجدل ، وفي إجراء هذا الحوار ، الى حد الانزلاق في كل موجبات التعصب العلمي الجغرافي . والتعصب في الرؤية الجغرافية العلمية مرفوض شكلاً وموضوعاً ، لأنه لا يؤدي إلا إلى الجمود الشديد وعدم التحلي بالمرونة . ويؤدي الجمود الى الابتعاد عن الحقيقة ومجافة الواقعة . ومن ثم يكون الاستغراق في الانحياز والمبالغة وصولاً الى حد المغالطة في تقديم العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، وفي رؤية المواجهة بينها والحكم الجغرافي الصحيح عليها .

واتجاه فريق برأيه المتعصب وبحثه وكل اهتمامه المنحاز ، الى جمع الحجج والبراهين ، والى حشد بعض النماذج والأمثلة ، لكي يدلل على قوة فعل الطبيعة وجبروت تأثيرها الفاعل في المكان والزمان ، يمثل اتجاهها وجيهاً ، من حيث الشكل . ويكون لهذا الاتجاه في مجالات البحث العلمي الجغرافي ، ما يبرره من حيث الموضوع . ولا يجب أن نعرض عن مثل هذا البحث الجغرافي أو أن نهمله ، حتى لو تأتي الاعتراض الفعلي على الهدف الذي ينتهي إليه ، مبيناً على الحق .

وينبغي أن يتبنى هذا الاعتراض أو أن يكون التحفظ ، على حسن تصور هذه القوة في الفعل ، وفي رد الفعل ، وعلى حسن توقع نتائج التغير في قوة هذا الفعل أو

في قوة رد الفعل . كما يتبنى الاعتراض والتحفظ أيضاً على حسن استيعاب وتقويم جدوى متغيرات هذا التغير في فاعلية هذه القوة الفاعلة ، وكيف تتفاوت وتبالغ أحياناً في عنصر المفاجئة الذي يباغت الإنسان ، وكيف تتفاوت وتستر أحياناً أخرى ، في عنصر البطء الذي يتحدى الإنسان .

واتجاه فريق آخر برأيه المتعصب ، وبحته وكل اهتمامه المنحاز ، الى جمع الحجج والبراهين ، والى حشد النماذج والأمثلة ، لكي يدلل على مهارة الإنسان وتفوق قوة فعله ، في المكان والزمان ، يمثل اتجاهاً وجيهاً من حيث الشكل . بل ويكون لهذا الاتجاه في مجالات البحث العلمي الجغرافي ، ما يبرره من حيث الموضوع . ولا يجب أن نعرض عن مثل هذا البحث ، أو أن نهمله ، حتى لو تأق الاعتراض الفعلي على الهدف الذي ينتهي إليه ، مبنياً على الحق .

وينبغي أن يتبنى هذا الاعتراض ، أو أن يكون التحفظ ، على حسن تصور هذه القوة - قوة الإنسان - في الفعل ، وعلى حسن توقع نتائج التغير في قوة هذا الفعل أو في قوة رد الفعل . كما يتبنى الاعتراض والتحفظ أيضاً على حسن استيعاب وتقويم جدوى متغيرات هذا التغير في فاعلية هذه القوة الفاعلة ، وكيف تتفاوت وتبالغ أحياناً في عنصر الأداء الذي يطوع الطبيعة ، وكيف تتفاوت وتتنوع أحياناً أخرى ، في عنصر الاستجابة الذي يطاوع الطبيعة .

ومن ثم لا ينبغي أن ينكر الاجتهاد الجغرافي قوة فعل الطبيعة ، أو أن يتنكر أبداً لمهارات الإنسان ، في إطار المواجهة وحدث المصارعة بينهما ، من أجل ترسيخ التعايش في المكان والزمان . بل ولا ينبغي أن ينحاز الاجتهاد الجغرافي أبداً في رؤيته أو في تقويمه الى أي من هذين الطرفين ، وهما يتصارعان ويسويان الحساب ويشتركان معاً في وضع صيغة المصالحة ورسم حد المصالحة بينهما ، لحساب التعايش الذي يكفل سيادة الإنسان في المكان والزمان .

وبموجب الرؤية الجغرافية المتوازنة ، التي لا تنحاز الى طرف من هذين الطرفين على خط المواجهة وتحفظ في تقويم المصارعة ولا تبالغ ، يجب أن :

أولاً: أن ننكر على فريق الحتميين رأيهم المنحاز الى صف الطبيعة ، الذي

يعطيها أكثر مما تستحق وهي تسيطر على حركة الحياة .

ثانياً : نعترض على فريق الامكانيين ونستهجن رأيهم المنحاز الى صف الإنسان الذي يعطيه أكثر مما يقدر عليه وهو يمضي ويطور حركة الحياة .

وهما معاً يبتعدان عن الواقع والواقعية . بل وهما معاً وفي وقت واحد ، يوقعان قضية هذه المواجهة في إطار العلاقة الحتمية بين الإنسان والطبيعة ، في الخطأ الجسيم . ورغم التناقض الموضوعي الشديد بينهما ، على طرفي النقيض في النتائج النهائية لمجمل الإدعاء الباطل ، يكون الانحياز المتعصب هو المسئول على هذا الترددي في عين الخطأ الذي لا يغتفر .

وسواء كان هذا الخطأ الجغرافي ، هو محصلة التزمت الشديد والمبالغة فيه ، أو كان هذا الخطأ ، هو محصلة التسبب الفعلي والتمادي فيه ، فإنه خطأ عظيم يفضي إليه التعصب الأحق من وجهة النظر الجغرافية الموضوعية . بل قل إنه هو التورط الذي لا يغتفر ، ولا مبرر له ، لأنه يتجاوز الحقائق الموضوعية ويتجنب الصواب ، ولا يحسن تقويم جدوى الفعل أو رد الفعل ، في إطار المواجهة وكل جولة صراع بين الطبيعة والإنسان . ولا يسفر هذا التورط المنحاز عن شيء غير الانغماس في التعصب الجغرافي ، الذي يفقد وضوح الرؤية وبعد النظر ، عندما تكون المواجهة ويحدث الصراع ، أو عندما توضع المصالحة ويطمئن التعايش في المكان .

الحتمية انحياز فاضح الى الطبيعة

تستهوي الطبيعة فريق الحتم وينحاز الى قوة فعلها ويبالغ في تقويم هذا الفعل في المكان والزمان . بل يترك هذا الفريق لهذا الفعل في المكان والزمان الجبل على الغارب وهو يؤثر على حركة الحياة على درب التغير من عصر الى عصر آخر . ويتصور هذا الفريق - بغير حق - مبلغ إذعان الإنسان لما تملبه أو تفرضه الطبيعة في المكان الزمان ، وكأنه حقيقة ، ينبغي التسليم بها ، وعدم تجاوزها أو الاعتراض عليها^(١) .

١ - نشر فريدريك راتزل كتاب جغرافية الإنسان في سنة ١٨٩١ ، ١٨٩٢ . ولقد عرف فيه مفهوم الجغرافية البشرية في إطار الثنائية الجغرافية . وأكد راتزل حتمية قوى الطبيعة ، وجسد مبلغ امتثال نشاط الإنسان وأنماط حياته لهذه القوى التي لا قبل له بالتمرد عليها أو الخروج عن طاعتها . ويضع راتزل قواعد هذا الانحياز الى صف الطبيعة ، في إطار الفكر الجغرافي الحديث .

ويقع هذا الفريق بموجب هذا الانحياز الفكر الجغرافي الفاضح ، من غير شك ، في موجبات الخطأ الجغرافي الفادح . بل قل أنه يعاند ، ويصر على أن يأتي هذا الخطأ الجغرافي . وهو لا يرجع عنه أو يتراجع لدى ممارسة أي تصور أو أي بحث جغرافي ، يعالج حركة الحياة أو يقوم التعايش أو يحسب حساب مكانة الإنسان وسيادته في المكان والزمان .

ويمتحن اجتهد هذا الفريق الجغرافي - بكل البساطة - قدرات الإنسان . ويستخف في إطار رؤيته للمواجهة بين الطبيعة والإنسان بهذه القدرات ، في كل مكان وفي أي زمان . كما يهدر خبرات الإنسان ومهاراته المكتسبة ، ولا يحسب لها في تصوره المنحاز أي حساب ، في وضع صيغة المصالحة من أجل التعايش وترسيخ موجبات السيادة في المكان والزمان .

ويتمادى هذا الفريق المنحاز الى صف الطبيعة ، في الاستخفاف بالإنسان من غير حدود . بل هو يرد قدرة الإنسان ومهارته في الفعل أو في رد الفعل وهو يخوض جولة المصارعة ويواجه الطبيعة من أجل الانتصار لمصيره في المكان ، الى ما توسوس به الطبيعة له في أذنيه^(١) . وتبدو الطبيعة التي لا تقهر في اعتقاد هذا الفريق ، وكأنها هي التي تبصر الإنسان وتأخذ بيديه معاً ، لكي يقبل ويستوعب ما تمليه عليه ويستجيب له ، أو لكي يتجاوز الإنسان المحنة أو التحدي المعلن الذي تتصدى به الطبيعة لحضوره ومعاشة مصيره في المكان والزمان .

وهذا معناه في تصور هذا الفريق الذي يكبل أيدي الإنسان اسقاط حقه في الاختيار . ومعناه أيضاً أن الطبيعة هي التي تترفق بالإنسان وتحنو عليه وتحدد حد المصالحة الذي لا ينبغي أن يتجاوزه ، وهي أيضاً التي تقسو عليه وتلوي ذراعه وتطوعه ، حتى يطاوع ويستجيب ولا يعصى لها أمراً في المكان والزمان . ومن ثم لا

١ - أعادت مس الين سمبل الأمريكية في سنة ١٩١١ كتابة جغرافية الإنسان ، لكي تؤكد على أن الإنسان ابن البيئة الطبيعية . بل تقول أن الطبيعة هي التي تطعمه وتحسن الية أحياناً ، وهي التي تقتر عليه وتعلن عليه التحدي أحياناً أخرى . وهي التي تتلاعب به وتهمس له في أذنه بحل العقدة المستعصية التي يكون بموجبها هذا التحدي .

تكون سيادة الإنسان في غير الإطار وعلى غير المستوى الذي تسمح به الطبيعة وترضى عنه^(١) .

هذا ، ولا يملك الإنسان في نظر هذا الفريق المنحاز أن يعارض الطبيعة في المكان . كما لا يملك أيضاً أن يعترض على إرادة وتوجيه وفعل الطبيعة في أي مكان وفي كل زمان . بل وليس في وسعه أبداً أن يتمرد أو أن يخرج على طاعة الطبيعة . وكان الطبيعة هي التي تضبط وحدها في رأي هذا الفريق . وكان الإنسان هو الذي ينضبط وحده . وتعتبر هذه الاستجابة عن الاستسلام والإذعان الكامل من غير أدنى تحفظ ، عن قوة فعل وتأثير الطبيعة .

وبموجب كل هذه المعاني التي تمنع في الانحياز الفاضح الى صف الطبيعة ، يكبل الحتميون إرادة الإنسان ، ويمتنع تفكيرهم الجغرافي قدراته . بل قل أنهم يستخفون بخبراته المكتسبة ويحسدون كيف تملي عليه الطبيعة فيستمع إليها ويطاوعها . ومن ثم يبدو في تصورهم المنحاز :

أولاً : الإنسان وهو أعجز من أن يصطنع لذاته على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة ، مقومات التعايش ، أو وهو أضعف من أن يؤمن مصير هذا التعايش في المكان والزمان .

ثانياً : الطبيعة وهي صاحبة اليد العليا والقبضة القوية المهيمنة التي تخطط لهذا التعايش من جانب واحد فقط . وليس على الإنسان وهو مرغم إلا أن يطاوع وأن يستجيب لكي يضمن حضوره وحق التعايش ، ويؤمن مصيره وحق طلب العيش في المكان والزمان^(٢) .

ويجنح هذا الفريق الجغرافي الذي ينحاز الى صف الطبيعة - بكل التزمّت

١ - تبنى بعض الجغرافيين في مطلع القرن العشرين هذا التفكير الحتمي ، بل لقد نما وطور بعض الجغرافيين من أمثال مس الين سمبل ودي مولان الفرنسي فلسفة هذا الحتم الجغرافي . وانبرى كل واحد منهم للدفاع عن هذه الفلسفة وكأنه يدافع عن عقيدته .

٢ - يعترض الانثروبولوجيون بقوة على هذا التصور الظالم الذي يعطي الطبيعة في المكان أكثر مما تستحق - ولقد كان أشد الاعتراض على رأي دي مولان الذي سار على درب الحتم الجغرافي ، لكي يقول أن الطريق وحده هو الذي يخلق النمط الاجتماعي .

المبالغ فيه - الى الخطأ الفادح في التفسير الجغرافي . بل يتشبث به ولا يرجع عنه في رؤية التحليل الجغرافي للعلاقة بين الإنسان والطبيعة في حالة المواجهة أو في حالة المصالحة . ويجسد هذا التزمت المبالغ فيه حركة الحياة ، وكان الإنسان مكبل الأيدي ومسلوب الإرادة . بل ويسخر من تصور الإنسان وهو يعلن سيادته على الأرض في المكان والزمان .

ويكون شأن الإنسان في المكان - في رؤية هذا الفريق - شأن الدمى والعرائس على مسرح العرائس . وتصبح الخيوط التي تمسك بها الطبيعة ، هي المسئولة عن تحريك هذه الدمى وتسيير حركة الحياة على الدرب الذي تختاره لها ، في المكان والزمان . ويبلغ هذا التزمت مداه عندما يتصور هذا الفريق ، أن حركة الحياة لو قدر لها أن تصور لكي تبدأ على الأرض من جديد لسارت على نفس الدرب ، ولتكررت القصة بكل تفصيلاتها مرة أخرى دون تبديل أو تغيير .

وهذا التفكير الجغرافي الحتمي الغارق في الانحياز ، والمبالغ في التزمت ، هو عين ما يظلم الإنسان من غير تحفظ . وهو الذي يصور الطبيعة حرة تضبط ولا تنضبط ، وهي تمسك بزمام أو بأيدي التعايش وتهيمن . وهو الذي يصور الطبيعة وهي تقود حركة حياة الإنسان وتوجهه وتلزمه بالتغيير وهو لا يملك من أمر نفسه شيئاً .

وهذا التفكير الجغرافي الحتمي الغارق في الانحياز ، والمبالغ في التزمت ، هو عين ما يضحك جبروت الطبيعة من غير تحفظ . وهو الذي يصور الطبيعة وهي تفرض الضوابط التي يتعين أو قل التي يتحتم التزام التعايش في المكان والزمان بها ، أو الانضباط بموجبها . وهو الذي يصور أيضاً استسلام الإنسان لفعل الطبيعة وهي تملك كل أمره^(١) .

ولا نعرف حقاً ، لماذا وكيف يتفاوت فعل الطبيعة وهي تقود وتوجه وتسيطر على التعايش من مكان الى مكان آخر؟ وهل يدعو هذا التفاوت وحده الى تنوع

١ - استنكر دور كيم رأي راتزل في الحتم بل واستهجن هذا الاتجاه بصفة عامة واعترض عليه اعتراضاً موضوعياً .

وتعدد وتباين مستويات هذا التعايش ؟ ومن مكان الى مكان آخر ؟ .

ولا نكاد نعرف أيضاً ، لماذا وكيف يتبنى على أسس هذا التفاوت وهو كبير ، تباين مستويات التعايش في إطار البيئة الطبيعية ، من مكان الى مكان آخر ، ومن عصر الى عصر آخر . وهل يفسر هذا التفاوت في قوة قبضة الطبيعة وحده موجبات التنوع والتعدد في مستويات التعايش واتجاهاتها الى التغير في المكان والزمان ؟

ومع ذلك ينبغي أن نعرف جيداً أبعاد هذا الانحياز الفاضح الى صف الطبيعة ونعترض عليه . وهذا الانحياز من غير تحفظ ، هو الذي يتجنى من غير حق على الإنسان دائماً . ويبدو هذا التجني واضحاً ويستحق التنديد وهو يظلم الإنسان في إطار المواجهة بينه وبين الطبيعة في أي مكان وزمان^(١) . كما يبدو هذا التجني أيضاً أكثر وضوحاً ويستحق الشجب ، وهو يظلم الإنسان في الاستجابة للمصالحة التي تنفرد الطبيعة بوضع بنودها^(٢) .

الإمكانية انحياز متحفظ الى الإنسان

يفتن الفريق الآخر من الجغرافيين ، الذين اعترضوا على التفكير الجغرافي الحتمي وشجبوا فلسفته بمهارات الإنسان وقدراته . بل تستهوي هذا الفريق ، وهو فريق الإمكانية انتصاراته في مواجهة الطبيعة ، وفي ترسيخ وتنمية وتطوير التعايش في المكان . ويكاد أن يترك هذا الفريق للإنسان في المكان والزمان الحبل على الغارب ، وأن يتبنى فلسفة تناقض فلسفة الحتمين .

ويتصور هذا الفريق بغير حق أيضاً ، قدرة الإنسان ومهارته التي تسعفه لكي

١ - هاجم لوسيان فيفر بشدة هذه الاتجاهات الفكرية الغارقة في الحتم . ولقد أقام البراهين التي تدلل على ضيق أفق التفكير الجغرافي الحتمي . كما فند أوجه التزم والتعصب أو الانحياز الى صف الطبيعة .

٢ - من أجل تصور مبلغ انغماس بعض الفكر الجغرافي الحتمي وانحيازه من غير وعي الى صف الطبيعة اقرأ ما ذهب إليه جغرافي مثل فكتور كوزن . ويمكن أن تقوم مبلغ التشبث بمسألة استسلام الإنسان لما تمليه الطبيعة ، ثم تبين تعليقات وولدرج وجوردن ايس في كتاباتها على مثل هذا الانحياز الى فلسفة التفكير الجغرافي الحتمي .

يفعل ما يشاء . بل يتصور أنه لا يتورع عن فرض إرادته في مقابل إذعان الطبيعة لهذه الإرادة ، وما تمليه أو تفرضه في المكان والزمان لحساب السيادة وانتصار التعايش ، في إطار العلاقة بينه وبين الطبيعة . ويبدو تفوق الإنسان وانتصاره وكأنه حقيقة لا تستحق الجدل وينبغي التسليم بها ، وعدم تجاوزها أو الاعتراض عليها .

وهكذا يقع هذا الفريق من خلال فلسفته ورؤيته للعلاقة الحتمية بين الإنسان والطبيعة في موجبات الانحياز الى صف الإنسان . وصحيح أن هذا الانحياز يكون متحفظاً لأنه لا يستخف بقوة فعل الطبيعة وفاعلية الضبط الطبيعي . ولكن الصحيح أيضاً أن هذا الانحياز المتحفظ لا يحول دون الوقوع في الخطأ المفضوح . بل قل - بكل الثقة - أن هذا الفريق يصر على ممارسة الخطأ . وهو لا يرجع عنه أو يتزحزح لدى تقصي أي تصور موضوعي هادف ، يعالج معنى حركة الحياة ، ومبلغ اطمئنان التعايش في مواجهة الطبيعة في المكان والزمان .

وفي الوقت الذي لا يستهين فيه هذا الفريق بقوة فعل الطبيعة ، ولا يستخف بها في أي مكان وفي كل زمان ، يغالط ويبالغ في حساب قوة فعل الإنسان . وبموجب هذا الحساب أو هذا التقويم المغلوط ، يعطى هذا الفريق الإنسان ويضع قدراته ومهاراته في حجم أكبر مما يستحق . بل قل أنه يكاد أن يضع قوة فعل الطبيعة في حجم أقل مما تستحق . ويوشك في بعض الحالات أن يسقط فعل الطبيعة من الحساب ولا يقدر لها قدرها الصحيح ومبلغ اسهامها الحقيقي في وضع صيغة التعايش التي يحيا بموجبها الإنسان سيداً ، في أي مكان وفي كل زمان .

وقد يتعاضد هذا الفريق الذي يفتن بقوة ومهارة الإنسان ، في المغالطات والمبالغات حتى يبدو وكأنه يستخف بالطبيعة الى حد لا يمكن السكوت عليه . كما يبدو أحياناً وهو مبالغ في تقويم وحساب جدوى قدرات الإنسان وتعاليه ، وكأنه المارد الجبار الذي لا يجد من يسأله عما يفعل . وقدرات الإنسان ، في حساباتهم ، هي التي لا تقهر ولا ينبغي أن تقهر أبداً . وهي التي تعبت بالطبيعة كيفما تشاء في إطار السيادة المطلقة على الأرض . وهي التي تفرض حضور الإنسان وتسلط على الطبيعة ، لكي تقبل ولا تمتعض أو تعترض على ما يمليه الإنسان ، أو لكي تتمثل وتدعن لهذا الحضور وغط التعايش في المكان والزمان .

وهذا معناه في تصور هذا الفريق الذي يقع في الخطأ ، أن الطبيعة قد تتحدى الإنسان في المكان والزمان ، ولكن الإنسان هو الذي يلوى ذراعها ويطوعها حتى تطاوع وتستجيب ، ولا تعص له أمراً . وهذا معناه أيضاً أنه حر تماماً ومتحرر يحكم الطبيعة وينبغي أن تطاوعه وتدين له بالولاء وهو يفعل ما يشاء . وينساق هذا الفريق في غرور ومبالغة تجسد قدرة الإنسان على التمرد أو العصيان والخروج عن طاعة الطبيعة حتى لا يكاد يقيم وزناً للضبط الطبيعي .

ويضع هذا التصور الإنسان في مكان من يكاد ينفرد بوضع صيغة المصالحة في المكان على هواه . بل أنه يعيش في المكان والزمان وفي وسعه أن يتعايش مع الطبيعة التي تطاوعه ولا تملك أن تعارض أو أن تعترض على ما يفعله الإنسان أو على ما يتطلع إليه . ويبدو التحرر في رأي هذا الفريق وكأنه علامة على استسلام الطبيعة وإذعانها الحقيقي ، لإرادة الإنسان وقدراته ومهاراته^(١) .

وبموجب هذه المعاني كلها التي تتحفظ وتغالط في حساب قوة فعل الطبيعة ، وتبالغ في حساب إيجابية فعل الإنسان ، يبدو منتهى الاستخفاف في تقويم العلاقة بين الإنسان والطبيعة . كما يبدو التهاون في تقويم الضبط الطبيعي الى الحد الذي يصبح فيه الإنسان وحده مسئولاً عن اصطناع وصياغة وإقرار مقومات التعايش ، دون اكتراث حقيقي ، أو عناية موضوعية ، بالطبيعة وخصائصها وضوابطها الفاعلة في المكان والزمان .

وتضع هذه المبالغات الإنسان في مكانة السيادة المتعالية . ويبدو وكأن حضور الإنسان في المكان والزمان ، هو الذي يخطط لهذا التعايش في إطار علاقة التبعية بين الطبيعة وهي تابع يطاوع ، والإنسان وهو متبوع يطوع . وهو أيضاً الذي يحدد مستويات التعايش المتفاوتة ، من مكان الى مكان آخر ، ومن عصر الى عصر آخر ، من جانب واحد فقط ، ودون اشتراك الطبيعة معه في هذه المهمة . بل وليس في

١ - قاد لوميان فيفر وفيدال دي لابلانش وبرين من فرنسا ، وكارل سالور من أمريكا مسيرة هذا الانحياز المتحفظ في صف الإنسان . ولقد أسقطوا وهم ضحية المبالغة والإعجاب الشديد بقوة الإنسان السلبية تماماً عن الإنسان والبسوه لباس الإيجابية الفاعلة من غير حدود ، في مواجهة الطبيعة .

وسع الطبيعة وهي مدعنة إلا أن تطاوع . وتظل تطاوع وتستجيب له ، وترحب بحضوره وحقه المطلق في التعايش الأنسب ، في المكان والزمان .

ويمنح هذا الفريق الذي ينحاز الى صف الإنسان وهو متحفظ - بكل التسبب المبالغ فيه - الى ارتكاب هذا الخطأ الفاضح . ويتشبت هذا الانحياز المتحفظ بهذا الخطأ الذي يظلم الإنسان عندما يبالغ في هيمنته وفرض إرادته ، ولا يرجع عنه . ويجسد هذا التسبب المبالغ فيه من غير حساب وعلى غير أساس صحيح حركة الحياة ، وكأن إرادة الإنسان لا تقهر ، وهي تفعل ما يحلو لها ، ولا تجد أو لا تواجه من يستحق أن تخشاه أو أن تقيم له في حساباتها وزناً .

وتصبح قبضة الإنسان في نظر فريق الإمكانية هي الأقوى . وهي تطاوع إرادته ، ولا تخيب له مطلباً أو تخذله . وتكون هذه الإرادة في إطار المبالغة ، هي المسئولة عن الماضي قدماً في ترسيخ وتطوير وتحسين أحوال التعايش على الدرب وبالأسلوب الذي يختاره الإنسان ويمارسه في المكان والزمان . ويبلغ هذا التسبب المبالغ فيه من غير حدود ، مداه عندما يتصور هذا الفريق ، أن حركة الحياة في المكان والزمان ، تعربد وتعبث على مرأى ومسمع من الطبيعة وهي في المكان ومكانتها هي مكانة التابع ، ومن تخوف من العواقب .

وهذا هو عين الخطأ الفاضح الذي يمتهن الطبيعة ، ويصور الإنسان في حجم أكبر من حجمه الحقيقي ، وهو يمسك زمام مصيره ويقود حركة حياته ويوجهها وينتصر لها وبها ، لأنه يملك أمر نفسه . وهو أيضاً عين الخطأ المفضوح الذي يصور ويضخم حجم الإنسان وفعله وموجبات تسيده وانتصاره ، وهو لا يعبأ أو يكثرث بالطبيعة ويحسب حساب فعلها القوي المتغير من حوله ، في المكان والزمان .

هذا ولا نكاد نعرف من خلال رؤية هذا الفريق وانحيازه المتحفظ ، كيف يتفاوت فعل الإنسان وهو سيد مصلحته ومصيره، أو وهو يملك ويسيطر على مقومات التعايش في كل مكان من عصر الى عصر آخر . بل قل وكيف يتبنى على هذا التفاوت الذي تصطنعه أيدي الإنسان وفعله الماهر الذي لا يسكت ، اختلاف وتنوع وتباين مستويات التعايش على أوسع مدى من مكان الى مكان آخر ، ومن عصر الى عصر آخر ؟ .

رفض الانحياز والاعراض عنه

التزمت الذي يستبيح الحتميون بموجه الانحياز الى صف الطبيعة ، بحسب جيداً حساب الضبط الطبيعي وبيالغ فيه . وتتجاوز هذه المبالغات الحد المعقول الأنسب وتؤدي الى الوقوع أو التردى في صميم الخطأ الجغرافي الفادح . ويظلم هذا الوقوع في الخطأ الفادح الإنسان وعلاقته مع الطبيعة كل الظلم . وهو لا يترك لمهارته وخبراته أي حساب ، في مواجهة الطبيعة والتعامل معها .

ويتعامل هذا التزمت الجغرافي مع الإنسان ، تعامل الطفل مع الدمية ، التي تثير اعجابه ويفتن بها ، ولكن يلعب بها حيناً ويعبث بها ويفسدها حيناً آخر . وهو في كل الحالات ينقاد لها ويطاوعها ، في اطار علاقة التبعية حيث يقوم الإنسان بدور التابع الذي يطاوع ، وتقوم الطبيعة بدور المتبوع الذي يطوع . ويستحق هذا الانحياز المفضوح والتفكير الجغرافي المتزمت الاعتراض الشديد ، لأنه يستخف بالإنسان ولا يعطى أو لا يقيم لسيادته في المكان والزمان وزناً ، على أقل تقدير .

والتسبب الذي يستبيح الامكانيون بموجه الانحياز المتحفظ الى صف الإنسان ، بحسب جيداً حساب الضبط البشري وبيالغ فيه . وتتجاوز هذه المبالغات الحد المعقول الأنسب وتؤدي الى الوقوع أو التردى في صميم الخطأ الجغرافي الواضح . ويظلم هذا الوقوع في الخطأ الواضح الطبيعة والإنسان في وقت واحد . بل يتجنى هذا الظلم على العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، وهو يترك للإنسان أن يفعل ويمارس خبراته في مواجهة الطبيعة وكأنها جامدة لا تملك أن تفعل شيئاً .

ويظلم هذا التسبب الجغرافي الطبيعة حقاً ، لأنه يحرمها قوة الفعل المؤثر في مواجهة الإنسان ، الذي يطلب التعايش ، ويصطنع مقوماته على هواه ودون حساب وتقويم صحيح للضبط الطبيعي . وهو يظلم الإنسان أيضاً ويضخم فعله ، لأنه يحرر إرادته الى حد كبير ويترك له أن يفعل ويغير ما يشاء في حضور الطبيعة . وفي إطار علاقة التبعية حيث يقوم الإنسان بدور المتبوع الذي يطوع وتقوم الطبيعة بدور التابع المطيع الذي يطاوع ، يصطنع الإنسان مقومات التعايش ويطورها ، ولا يكاد يسأل الطبيعة ولا تكاد هي تسأله عندما تجاوبه وتطاوعه . ويستحق هذا الانحياز المتحفظ ، والتفكير الجغرافي المتسبب ، الاعتراض الشديد أيضاً ، لأنه يسخر الطبيعة للإنسان ولا يعطى أو لا يقيم وزناً كبيراً للضبط الطبيعي على أقل تقدير .

- وبيني الاعتراض في الحالتين على أساس متين، لأنه يشجب الانحياز وعدم التوازن في تقويم العلاقة، التي تحدد مكانا للتابع ومكانا آخر للمتبوع. ويسجل هذا الاعتراض رفضه للرؤية الجغرافية التي لا تتسع لتصور العلاقة بين الطبيعة والانسان في شكل آخر، وكما ينبغي أن تكون، أو التي لا ترى ولا تدرك ولا تضع في اعتبارها العلاقة، بين مفهوم الضبط ومفهوم الانضباط وهما متلازمان وملتزمان في وقت واحد، في المكان والزمان.

- وهذا معناه أن هذا الاعتراض ينصب على تفرد الطبيعة أو تفرد الانسان، ويطعن في تفوق أي منها على الآخر، في وضع المصالحة بينها التي تكفل حبكة صيغة التعايش في المكان والزمان. ومعناه أيضا أن الطبيعة لا تضع صيغة التعايش، لكي تفرضها على الانسان وفي غيبته وعلى غير ارادته، وأن الانسان لا يضع صيغة التعايش على هواه دون علم الطبيعة، وفي غيبته أو على غير ارادتها.

- وصحيح أن حماس وتعصب كل فريق من هذين الفريقين، فريق الحتمية وفريق الامكانية، قد جرى حول فكرة هذا التفرد أحيانا، أو فكرة تغلب فعل وتأثير أي منها على فعل وتأثير الآخر. وصحيح أن هذا الحماس المتعصب، قد نما وطور وأضاف الاضافات العلمية المجددة أو الموجودة، الى الرصيد الجغرافي العلمي، في شكل بحوث ودراسات جغرافية مفيدة. وصحيح أن الرؤية الجغرافية التي أطلقت على العلاقة على أنها تكون في اطار التبعية، بين الطبيعة والانسان أو بين الانسان والطبيعة، والتزمت زاوية التزمت أحيانا، أو زاوية التسيب أحيانا أخرى، قد تمادت في جمع وتكديس وحسن توظيف الحجج والأدلة والبراهين، لكي تدلل على صدق وواقعية الجانب الذي تنحاز اليه وتدافع عنه بحرارة، ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن هذا الخطأ قد استدعى قيام الفريق الثالث، لحسم هذه القضية. بل قل أن الحاجة العلمية الجغرافية، كانت في أشد الحاجة الملحة الى طلب هذا الفريق الثالث الذي لا ينحاز الى صف الطبيعة أو الى صف الانسان من غير حق، لكي يصحح الرؤية الجغرافية الضالة أو المضللة للعلاقة بين الطبيعة والانسان في المكان والزمان.

- وكان ينبغي أن يضم هذا الفريق الثالث الباحثين الجغرافيين الذين في وسعهم التجرد من الانحياز أصلا، والذين يهتمهم إسقاط منطق أو فلسفة التبعية،

عن العلاقة في المكان والزمان ، بين الطبيعة والانسان . بل وكان من الضروري أن يتبنى هذا الفريق المتجرد من الانحياز الباطل فلسفة جديدة يعرف بموجبها ، كيف توضع أو تبني صيغة التعايش في اى مكان ، وفي كل زمان في ظل علاقة جديدة متجردة من منطق التبعية والانغماس في متاعب البحث عن من يكون التابع ؟ ومن يكون المتبوع ؟ .

- وهذا معناه أن يتولى الفريق الثالث الذى يعترض على التزمت أحيانا ، ويعرض عن الانحياز الى الطبيعة ، أو الذى يعرض عن التسبب أحيانا اخرى ، ويعترض على الانحياز المتحفظ الى الانسان ، البحث عن مخرج تتجرد بموجبه العلاقة بين الطبيعة والانسان من منطق وروح وفلسفة التبعية . بل ينبغي أن يعتمد البحث الدقيق والمدقق دون التردى أو الوقوع من غير قصد في حائل الانحياز الى اى من هذين الطرفين في المكان والزمان ، حتى يتبين كيف يشتركان معا في وضع أو في تطوير صيغة التعايش .

- ولقد تأتى اجتهاد هذا الفريق الجغرافى الثالث ، الذى يعقب بالرفض والاعتراض على الانحياز وعلاقة التبعية بين الانسان والطبيعة . ويتولى هذا الفريق البحث بالفعل عن المخرج الذى يبعده عن مواقف الطرفين المتناقضين في النظرة الجغرافية المفرضة والرؤية المنحازة وغير المتجردة للعلاقة الاصولية بين الانسان والطبيعة في الزمان والمكان . ويمضى هذا الاجتهاد الجغرافى المتجرد والمتوازن في دروب البحث عن الحل الوسط .

- ويكون المطلوب في اطار هذا الحل الوسط ، اعادة تقويم العلاقة بين الانسان والطبيعة حتى يعطى لكل طرف من هذين الطرفين المعنيين حقه ، ومبلغ اسهام كل منهما في وضع صيغة التعايش ، في المكان والزمان . وكان من الضروري أن يطالع هذا الاجتهاد الجغرافى بعناية كبيرة صور التعايش وانماطه ومستوياته في اكثر من مكان ، وفي اكثر من زمان ، وأن يرقب موجبات المرونة في التصور ، وكيف يمضى هذا التعايش منتصرا لحساب الانسان ، وكيف يتغير أو يتبدل في المكان دون تفريط في الانتصار من عصر الى عصر آخر . بل قل - بكل الثقة - كيف كان من الضروري أن تنكشف لهذا الفريق المتجرد مسئولية كل طرف من الأطراف المعنيين في حدوث هذا التغير ، وأن يستشعر مبلغ انتفاع الانسان بهذا التغير ، في المكان والزمان ، وفي

كل مكان وفي اى زمان .

- وهذا معناه أن اجتهاد هذا الفريق الجغرافى ، الذى يعترض أصلا على انحياز أى طرف من هذين الفريقين الجغرافيين المتناقضين ، والوقوف فى صف الطبيعة ، أو الوقوف فى صف الانسان قد تلمس بذكاء شديد ، تحرير الرؤية الجغرافية الباحثة عن الوجه الصحيح للعلاقة بين الطبيعة والانسان . ومن خلال هذه الرؤية الجغرافية المتجردة من الانحياز والمتحررة من منطق التعصب يعرض هذا الاجتهاد عن رأى الذى ينحاز أو الذى يضع الطبيعة فى مكان التابع أو المتبوع أو الذى يضع الانسان فى مكان التابع أو المتبوع .

- ومن ثم كان الأعراض عن رأى الحتميين الذى يريد أن يقول ويؤكد على أن الطبيعة هى وحدها ، التى أباحت وتبيح للانسان حق السيادة على الارض ، وانها فى لمح البصر تغدر به أحيانا وتشقيه ، وتجرده من هذه السيادة وموجبها احيانا اخرى وتخذله .

- كما كان الأعراض ايضا عن رأى الامكانيين الذى يريد أن يقول ويؤكد على أن الانسان وحده الذى يفعل بموجب التسود وحق السيادة على الارض بالطبيعة ما يشاء ، وأنه يعرف جيدا كيف يقاوم هذا الغدر ، فلا تجرده الطبيعة ابدا من موجبات السيادة على الأرض فى المكان والزمان .

- وبعد ماذا فعل هذا الاجتهاد الجغرافى ؟ هل أفل بالفعل فى تقصي حقيقة العلاقة بين الطبيعة والانسان ، وهل يكشف هذا الاجتهاد عن الوجه الصحيح لهذه العلاقة ؟

الرؤية الجديدة للعلاقة بين الانسان والطبيعة

- وينكب هذا الفريق الثالث المجدد من اجل تجميع أوصال هذه الرؤية الجغرافية الجديدة ، على دراسة العلاقة بين الطبيعة والانسان دراسة تحليلية عميقة . وربما تلمست هذه الدراسة شيئا من التجرد والاقلاع عن الانحياز لأى من هذين الطرفين فى اطار العلاقة التى لا تنقسم فى المكان والزمان . بل قل أن هذه الدراسة التحليلية تتعقب صيغة التعايش وهو أمر يمارسه الانسان ويحيا بموجبه فى المكان

والزمان . ومن ثم تتبين هذه الدراسة في نفس الوقت كيف يمضى هذا التعايش سويا في اتفاق كامل وتنسيق بديع مع خصائص الطبيعة .

- وهذا معناه أن اجتهاد هذا الفريق الذى يدعى عدم الانحياز ، يتكشف له معنى اشتراك الطبيعة والانسان معا ، في وضع واقرار صيغ التعايش في أى مكان وفي كل زمان . ومعناه ايضا أن هذه الصيغ المتنوعة والمتغيرة لا يخطط لها ، أو لا يستقل أى من هذين الطرفين بوضعها واقرارها ، في غيبة الطرف الآخر أو على غير هواه وارادته . ويرسخ هذا التصور اول خطوة في الاتجاه الصحيح .

- واشتراك الطبيعة والانسان معا ، في اطار علاقة لا يجوز الطعن فيها ، في وضع صيغة التعايش في المكان والزمان ، معناه الاتفاق بين هذين الطرفين على موضوعية هذه الصيغة وجديتها ، وعلى كيفية مضى حركة الحياة على الدرب ، في اطار الأبعاد الحقيقية لموجبات هذه الصيغة . ومعناه ايضا أن كل طرف من هذين الطرفين يضع شروطه ويوافق الطرف الآخر عليها ، وأن الاتفاق يتضمن البنود التى يتصالح الطرفان عليها . والمعنى الأهم من كل هذه المعانى ، أنه لا تعايش سوى تظمئن اليه حركة الحياة وتمضى بموجبه على الدرب ، في غيبة هذا التصالح ، أو المصالحة ، بين ارادة الانسان وقدراته ومهاراته في جانب ، وقوة الطبيعة وخصائصها ومتغيراتها في جانب آخر .

- هذا ، ولا يكون هذا الاتفاق الذى يفضى الى وضع واقرار بنود المصالحة بين الطرفين ، ولا يتأتى في جلسة عمل . بل يكون هذا التصالح من خلال جولة مصارعة حقيقية بين الطرفين في المكان والزمان . ويعرف الطرفان جيدا ، لماذا وكيف ومتى تدور هذه المصارعة على الحلبة في ربوع المكان ؟ بل ويعرف الطرفان جيدا كيف تتداخل تنازلات كل طرف لحساب الآخر ، في نسيج هذه المصالحة التى تنتهى بموجبه اى جولة ، وكل جولة من جولات المصارعة . ويرسخ هذا التصور الذى يجسد هذه المصارعة وهى تفضى الى المصالحة لحساب التعايش ، الخطوة الثانية في الاتجاه الصحيح .

- وبناء على هاتين الخطوتين في الاتجاه الصحيح ، يتلمس الاجتهاد الجغرافى في مرحلة من مراحل ، الاعتراض على الانحياز المفروض الى الطبيعة أو الى

الانسان ، مفهوم هذه المصارعة ، وكيف ولماذا ومتى تدور وتكرر من عصر الى عصر آخر ، بين الطبيعة والانسان في المكان . ولقد افترض هذا الاجتهاد الجغرافي معنى مضي حركة الحياة على الدرب وعي تتمتع بحق السيادة وتستثمر محصلة هذه المصارعة لتأمين التعايش في المكان والزمان .

- ويصور اجتهاد هذا الفريق كيف يواجه هذا المضي الصعوبة أو العقبة أو التحدى الذى يعترض سبيل التحرك المطمئن على الدرب . بل هو يصور هذا الاعتراض ، وكأنه الضوء الأحمر الذى ينذر ، ويستوجب التوقف . وصحيح أن التوقف ينهى التحرك ويجسد مبلغ اعتراض الطبيعة على مضي التحرك لحساب التعايش . ولكن الصحيح ايضا أن هذا التوقف لا يكون نهائيا بل ينهى مرحلة يستأنف من بعدها التحرك على الدرب من جديد .

- ويصبح هذا التوقف في نهاية كل مرحلة استجابة لهذا الضوء الأحمر ، نقطة تحول حاسمة يجب أن يعمل الانسان لها الف حساب . وقل ان هذا التوقف هو الذى يستدعى الانسان لكى يعتلى ظهر الحلبة دفاعا عن حضوره ومصيره . وتدور على هذه الحلبة جولة صراع بين الانسان والطبيعة ، من أجل حسم الموقف . ولا يتغنى الانسان في هذه المصارعة ، شيئا غير الانتصار لحساب التعايش في المكان . بل قل إنه يتلمس حل عقدة التحدى التى كانت قد أوقفت حركة الحياة المطمئنة على الدرب .

- وتمضى المصارعة في حدود الانضباط المتبادل . ويوظف الانسان وسيلته الحضارية ، التوظيف الأنسب ، لكى يبطل مفعول التحدى الصعب ، أو لكى يكبح جماح الصعوبة ، أو لكى يحل عقدة العقبة المستعصية التى جمدت حركة الحياة وهددت أمن التعايش في المكان . وبأى وسيلة حضارية ، وعلى أى وجه متاح ، يفلح بموجبه الانسان في التغلب على التحدى وحل عقده المستعصية ، يتحقق الانتصار لحساب التعايش . بل قل ينطفى الضوء الأحمر الذى يوقف حركة الحياة ، ويبدو النور الأخضر الذي يؤمن استئناف هذه الحركة من جديد ، في نفس المكان .

- عندئذ ، تعاود حركة الحياة السير وينتهى التوقف . ويصور اجتهاد هذا الفريق معنى استئناف هذه المسيرة على الدرب ، وهو عين ما يجسد الانتصار . ومن

عصر الى عصر آخر ، يتكرر هذا الموقف حتما . وتكون اكثر من وقفة تشل حركة الحياة على الدرب . وتكون اكثر من مصارعة في هذه الجولات المتكررة . ولكن تظل حركة الحياة متقدمة على الدرب بعد أن تفرغ من كل جولة صراع ، وبعد أن يتحقق الانتصار في كل جولة من هذه الجولات المتكررة في المكان ، من عصر الى عصر آخر .

- ويلفت النظر أن انغام التعصب والانحياز الى الطبيعة أو الى الانسان قد خفت حدتها الى حد كبير . بل لقد انحسرت فكرة المصارعة بين المارد القوى والقزم الضعيف ، وضرورة اذعان الضعيف للقوى . وتراجعت لهجة الاستخفاف التي طالما استخفت بالطبيعة ، في تصور الامكانيين أو استخفت بالانسان في تصور الحتميين . واقترب التفكير الجغرافي الجديد من فكرة تسوى بين الطرفين المتصارعين فلا مارد يقهر وهو الأقوى ولا قزم يستسلم وهو الأضعف .

- وتعتبر المصارعة التي تكون وتتكرر من عصر الى عصر آخر بين الانسان والطبيعة ، بعد الاقلاع عن فكرة المارد والقزم ، أو قل تفصح عن تصور جغرافي جديد . وتمتلك الطبيعة في اطار هذا التصور القدرة التي تناوش بموجبها الانسان ، أو تتحدها أو تعترض حركة حياته في المكان . ويمتلك الانسان في نفس الوقت القدرة التي يواجه بموجبها مناوشات الطبيعة أو يبطل بها مفعول التحدى ، أو يدفع الاذى عن حركة حياته في المكان . ويجسد هذا التصور الجغرافي الجديد كيف يمضى الاجتهاد الجغرافي في الاتجاه الصحيح وهو يطلب أو يتلمس الحل الوسط بين طرفي التناقض ، الحتميين والامكانيين .

- وصحيح أن تصور اصحاب مدرسة الحل الوسط* ، يبدو مقبولا من حيث الشكل على الاقل ، لأنه يقلع عن الانحياز الصريح المفضوح للطبيعة أو للانسان . وصحيح ايضا أن رؤية هذا الاجتهاد الجغرافي تحاول أن تقلع عن فكرة الصراع بين المارد والقزم . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن هناك بعض التحفظات المهمة التي ينبغي أن نفطن اليها . وما من شك في أن استيعاب هذه التحفظات ، يطعن في جدية وجدوى هذا الشكل المظهري من أشكال الاقلاع عن الانحياز .

* يجسد هذا الحل شكلا من حتمية الخطوة خطوة Stop and go Determinism

- وفي اعتقادي ان شبهة الانحياز المتخفي ما زالت عالقة بأذيال هذا التصور الجغرافي . بل قل أن هذا الانحياز المتخفي أو المستتر يعيد هذا التصور الجغرافي من ابواب خلفية الى الافكار الحتمية . وهو الذي يضع الطبيعة في مكانة من يحكم ويتحكم ، ويبقى على شكل العلاقة بين التابع المتبوع . وهو الذي يعطى الطبيعة وحدها الحق في أن تعترض حركة الحياة ، وأن توقفها وتجمدها ، وأن توقد الضوء الأحمر على الدرب .

- وهذا معناه أن هذا التصور الجغرافي لا يتجرد بالفعل من الانحياز الى صف الطبيعة . ويضع هذا التصور يد الطبيعة في مكان ومكانة أعلى من الموضع الذي توضع فيه يد الانسان . بل هو يضع الانسان دائما في موقف الدفاع عن النفس ، أو التصدي للتحدي الذي تعلنه الطبيعة عليه ، سواء تأتي بشكل مفاجيء أو بشكل غير مفاجيء ، بمعنى أن الطبيعة هي التي تملك زمام المبادرة ، وهي التي تستدعي الانسان في الوقت الذي تحدده وبموجب التحدي الذي تشهده في وجه حركة الحياة ، الى حلبة المصارعة ، وتنازله .

- وصحيح أن شبهة هذا الانحياز المتخفي أو المستتر الى صف الطبيعة ، لا تطعن في فكرة المصارعة ولا في نتيجة كل جولة . وهي لا تطعن ايضا في الاعلان الصريح الذي يبشر دائما بانتصار الانسان في مواجهة التحدي المعلن ضد حركة الحياة وحقوق التعايش في المكان . بل هي لا تخفي أو تنكر على الانسان قدرته الفذة ومهارته المتنوعة التي يخوض بها كل جولة من جولات المصارعة التي تتكرر من عصر الى عصر آخر . ولكن حرمان الانسان من حق المبادرة الى استدعاء الطبيعة الى حلبة المصارعة ، واعطاء هذا الحق كله للطبيعة وحدها ، لكي تنفرد بدعوة الانسان الى هذه المصارعة ، أو لكي تنفرد الطبيعة باعلان التحدي الذي يعترض مسيرة حركة الحياة ، هو جوهر القضية التي ينبغي الاعتراض عليها^(١) .

- ويكون الاعتراض اولا على التشبث بمنطق وفلسفة تبقى على العلاقة بين الانسان والطبيعة في اطار مفاهيم التبعية . بمعنى أن يضع هذا التصور الجغرافي

١ - يقود جريفيث تايلور هذه الاتجاه الذي يدعى عدم الانحياز .

الطبيعة فى مكان المتنوع وأن يضع الانسان فى مكان التابع . ووضع الطبيعة فى مكان المتنوع والانسان فى مكان التابع ، لا يعنى ابدا غير أن الطبيعة تطوع وأن الانسان يطاوع . وأن تطوع الطبيعة الانسان ، وان يطاوع الانسان الطبيعة ، يعيد الى الازهان روح ومنطق وفلسفة الحتم مرة أخرى .^(١) .

- وبناء على هذا الاعتراض الوجيه الذى يرفض التسلل الى الحتمية ، ينبغي أن نبحث عن التصور الجغرافى الافضل الذى يتحرر كلية من شبهة الانحياز الى الطبيعة أو الى الانسان ، فى المكان . ولا يتبنى هذا التصور الجغرافى الافضل على شىء أفضل من الاعراض عن منطق وفلسفة التبعية ورؤية العلاقة بين الانسان والطبيعة فى اطارها ، والأخذ بمنطق وفلسفة الندية فى العلاقة بين الانسان والطبيعة ، فى المكان والزمان .

علاقة الندية بين الطبيعة والانسان

- تأسيا على الاعتراض الموضوعى على شبهة الانحياز التى تلوث رؤية هذا الفريق الذى يدعى انه قد تجاوزت الحتميين ، وتجنبت تسبب الامكانين ، يبدأ الاجتهاد الجغرافى الباحث عن الرؤية الأفضل . وهو لا يطلب اكثر من حسن تقويم العلاقة بين الطبيعة والانسان فى المكان ، وحسن تقويم الاوضاع التى تؤمن التعايش وتكفل السيادة وتخدم التقدم الذى يمضى حثيثا على الدرب ، من عصر الى عصر آخر .

- ولا يعترض الاجتهاد الجغرافى ابدا فى اطار رؤيته الجادة لاوضاع التعايش فى المكان على مفهوم المصارعة الجادة بين الطبيعة والانسان . بل ولا يعترض ايضا على احتمالات تكرار هذه المصارعة فى نفس المكان ، من عصر الى عصر آخر . ولكنه يعترض ويحاول أن يتجرد وهو يتابع هذه المصارعة تجردا حقيقيا من شبهة الانحياز الى الطبيعة أو الى الانسان ، ولا يقف فى صف اى منها .

- وهذا معناه أن يتحرى هذا الاجتهاد الجغرافى رؤية تتجرد بصدق وواقعية ،

١ - هناك مجاملة متسترة لحساب التصور الحتمى الذى تلتزم به حركة الحياة على الارض فى اطار علامة التبعية بين الانسان والطبيعة .

لكي تتلمس العلاقة بين الطبيعة والانسان ، سواء كانت اثناء المصارعة ، أو تكون بعد حسم نتيجة كل مصارعة ، وكيف تكون بين ندين متكافئين . ويختلف مفهوم هذه العلاقة وهي ضرورية وواجبة ولا يجوز الاعتراض عليها بين ندين متكافئين ، عن مفهوم هذه العلاقة وهي ضرورة وواجبة ولا يجوز الطعن فيها بين تابع ومتبوع . وفي الوضع الذى نحافظ فيه الندية على الطبيعة والانسان كل فى حجمه الطبيعى أو الحقيقى ، تؤدى التبعية الى تجاوزات من غير مبرر فى تقدير أو فى تقويم حجم اى منهما .

- ومفهوم المصارعة الجادة بين الطبيعة والانسان لاقرار صيغة التعايش فى المكان ازمان ، وهما ندين متكافئين ، يعنى اول ما يعنى أن الطبيعة فى حجمها الحقيقى تحسب حساب الانسان ولا تستخف به ، وأن الانسان فى حجمه الحقيقى ، يحسب حساب الطبيعة ولا يستخف بها . كما يعنى ايضا أن الطبيعة تملك أن تتحدى الانسان وتواجهه ، وتلين وتطاول وسيلته التى يستخدمها لابطال مفعول هذا التحدى ، وأن الانسان يملك بدوره أن يتحدى الطبيعة ويوجهها ويستخدم وسيلته الحضارية، حتى يطوعها لنمط حياته وينتصر لحضوره ومصيره فى المكان والزمان .

- وامتلاك الطرفين هذا الحق المتبادل ، بحيث يكون للطبيعة فى حجمها الحقيقى ، ويكون للانسان فى حجمه الحقيقى ، يبدو وكأنه يجسد التصور المشروع . ويعبر هذا التصور المشروع عن الرؤية المتوازنة لفعل الطبيعة وقدرتها فى مواجهة الانسان فى جانب ، ولقدرات الانسان فى مقابل هذا الفعل . وهذا معناه ان فى وسع الطبيعة أن تضبط فينضبط الانسان ، وأن فى وسع الانسان أن يضبط فتضبط الطبيعة . وهل يتجاوز هذا التصور الواقع وأصول الندية بين الطبيعة والانسان ؟ وهل تحترق هذه الندية حد التوازن الفعلى فى المصارعة بين هذين الندين المتكافئين ؟

- ولكي نفهم جيدا معنى هذه الندية ونستوعب أبعادها الحقيقية ، ومبلغ حرص الانسان فى كل مكان وزمان على أن يخوض اى جولة من جولات المصارعة ، وهو ند وعلى قدم المساواة مع الطبيعة ، نلتمس المثل . ويشترط فى هذا المثل أن يكون واضحا الى الحد الذى نتبين بموجبه كيف ولماذا ومتى تبدأ هذه المصارعة ، بين

الطبيعة والانسان ، فى المكان والزمان . ومن ثم ينبغى أن نحسن تقويم هذه المصارعة والنتائج الايجابية والسلبية التى تفضى إليها ، وأن ندرك كيف تكون المصالحة التى يتبنى بموجبها حدا مناسباً للتصالح بينهما من اجل التعايش .

- وينبغى أن نرجع الى الماضى السحيق ، حيث نجد هذا المثل ، عندما كان الانسان يعيش بنمط حياته الاولى فى العصر الحجرى القديم . ولقد عاش الانسان فى احضان الطبيعة وعاشها ضعيفا ، يطلب ويحصل على ما يجد ولا يحصل ابداً على ما يريد . واعتمد الانسان فى هذا العصر وهو لا يملك القدرة على الانتاج على ما كان متاحاً له ويستطيع أن يحصل عليه وتقدمه الطبيعة اليه بكامل اختيارها . وما من شك أن الطبيعة قد وضعت بمفردها وفى غيبة القدرة البشرية فى ذلك الوقت المبكر ، حدا للمصالحة بينها وبين الانسان ، لا ينبغى أن يتجاوزه أو ان يتخطاه .

- وصحيح أن الانسان لم يعتمد ابداً تجاوز أو تخطى هذا الحد الذى ابتنت عليه المصالحة مع الطبيعة . ولكن الصحيح ايضا أن وسيلة الانسان الحضارية المتمثلة فى الآلة الحجرية واستخدام النار ، واتجاهات وجوده الديموجرافية المتمثلة فى النمو والزيادة والكثرة العددية ، قد شاركت التغير الطبيعى فى المكان فى ارهاق التوازن الحيوى . وبلغ هذا الارهاق حدا تجاوز بموجبه التعايش فى المكان والزمان حد المصالحة مع الطبيعة .

- وما من شك فى أن هذا التجاوز الذى ابنى على الخلل فى طبيعة التوازن الحيوى فى المكان والزمان ، قد اعلن التحدى على التعايش . واستوجب استدعاء الانسان الى الحلقة لكي تبدأ جولة المصارعة ، التى يجب أن ينتصر فيها الانسان لحضوره ولمصيره الذى يهدده هذا التحدى . ومع ذلك رفض الانسان الاستجابة لهذه الدعوة ، لأنه أدرك أنذاك مبلغ ضعفه ، وأنه ليس نداً فى مواجهة الطبيعة أو أنه ليس فى وسعه أن ينتصر . ولقد فضل أن يهرب أو أن يفر أو أن يمتنع فلا يزوج بنفسه ضعيفا وغير ند للطبيعة فى هذه المصارعة^(١) .

١ - يجسد الفرار والامتناع بموجب عدم الندية ، الشكل السلبى من الانتصار الذى يكسب به الانسان مصالحة جديدة مع الطبيعة فى مكان آخر عوضاً عن المصالحة التى انتهى اجلها فى المكان الذى هرب منه .

- ويبدو الانتصار من وجهة نظر الانسان لحساب التعايش ، وكأنه هو محصلة الفرار أو التهرب من هول هذه المصارعة وهو غير كفاء لها . وفي اعتقادي أن توظيف الفرار والتهرب بحثا عن التوازن الحيوى والمصالحة المطلوبة بالحاح مع الطبيعة فى المكان الآخر الذى يفر اليه ، هو اعتراف صريح ، لامتناع عن خوض غمار المصارعة فى حالة عدم الندية بينه وبين الطبيعة . بل قل ان خوض هذه المصارعة فى حالة عدم الندية أو عدم التكافؤ لا يعنى غير هزيمة الانسان وتعريض مصلحته ومصيره لعواقب الهزيمة التى تلحقها به الطبيعة حتى تمحقه ولا تبقى عليه مطمئنا فى المكان^(١) .

- ولكي نفهم ايضا معنى هذه الندية ، ومبلغ حرص الانسان على أن يخوض اى جولة من جولات المصارعة أو على أن يباشر الصراع وهوند مع الطبيعة وعلى قدم المساواة مع قوة فعلها المؤثر ، نلتمس المثل مرة اخرى . وتلمس المثل هذه المرة من نفس معين هذا الماضى السحيق فى العصر الحجري القديم . بمعنى أن نتبين علاقة الانسان والطبيعة فى هذه المرحلة التى قام التعايش فيها على اساس عطاء الطبيعة وهى تستضيف الانسان وتقدم له بكل السخاء أو تقتر عليه بكل البخل .

- وصحيح أن الانسان امتنع عن خوض المصارعة فى مواجهة انهيار التوازن الحيوى فى المكان ، لأنه استشعر عدم الندية . وصحيح ايضا أنه تلمس وباشر السلوك السلبى من أجل الخروج من هذا المأزق . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن هذه الممارسة السلبية ، قد وضعت فى مواجهة شكل آخر من اشكال التحدى الذى تجهز به الطبيعة وتستدعيه الى خوض غمار المصارعة . ولقد تمثل هذا التحدى الطبيعى فى حاجز المسافة بين المكان الذى ينبغى أن يفر منه لكيلا يواجه الطبيعة وهو غير ند لها ، الى المكان الذى ينبغى أن يفر اليه لكي يتعايش من جديد مع توازن حيوى تحدد أبعاده المصالحة الجديدة بين الطبيعة والانسان .

- ونجاح هذا الفرار ، واسقاط حاجز المسافة بين المكان والمكان الآخر ، سيرا على الاقدام ، يجسد معنى مباشرة السلوك الايجابى فى مواجهة التحدى . بل قل أنه يجسد مبلغ استثمار الندية مع الطبيعة ، لدى الاقدام على مباشرة هذا السلوك

١- صلاح الدين الشامى : الاستهلاك ظاهرة بشرية فى الرؤية الجغرافية (تحت الطبع) .

الايجابى ، من أجل تجاوز هذا التحدى والانتصار لحساب التعايش وحركة الحياة فى المكان الجديد . ومعنى هذا السلوك الايجابى ومباشرته ، أن الانسان كان فى هذه المرحلة التى يعايش الطبيعة فيها ويصالحها ضعيفا لأنه لا ينتج ، يختار بكل الوعى ويعرف قدراته بالفعل ويحسن مباشرة السلوك الايجابى أو السلبى فى مواجهة التحدى .

- بل قل - بكل اليقين - ان الانسان كان يعرف ، لماذا وكيف ومتى يكون السلوك سلبيا فيباشره لكيلا تقهره الطبيعة وما تبديه من تحد ، وهو غير كفاء للمصارعة . بمعنى أنه يمتنع عن السلوك الايجابى وهو لا يملك مقومات الندية . كما كان يعرف لماذا وكيف ومتى يكون السلوك ايجابيا ، فيباشره لكى يقهر الطبيعة وما تعلن عنه من تحد ، وهو كفاء فى المصارعة . بمعنى أنه يباشر السلوك الايجابى وهو يملك مقومات الندية .

- ولكي نزداد علما والماما بمعنى هذه الندية وجدواها ، ولكي نتبين مبلغ حرص الانسان على أن يخوض المصارعة فى اى جولة من جولاتها ، وهو ند حقيقى مع الطبيعة فى المكان ، وعلى قدم المساواة مع قوة فعلها المؤثر ، ولا يقبل بغير الانتصار على ما تبديه من تحديات ، نلتمس المثل مرة ثالثة . والمثل الذى نضربه حتى يجسد مفهوم هذه الندية وابعادها ، ومبلغ اقبال الانسان على خوض جولة المصارعة وهو لا يخاف أو يتهيب ، نتبينه غاية فى الوضوح وحسن البيان والتعبير ، ضمن تراث حركة الحياة وحضورها ، عندما تحول الانسان من جمع الغذاء الى انتاج الغذاء . وأول وأهم ما يفضى اليك هذا التحول والسيطرة على مقومات الانتاج ومباشرته فى المكان المناسب ، هو استشعار القدر المناسب من الندية مع الطبيعة .

- ولقد استشعر الانسان بناء على متغيرات الثورة الاقتصادية الانتاجية فى العصر الحجرى الحديث ، العزة والمنعة لانه امتلك بعض مقومات الندية . بل قل أنه فك اسر مصلحته الاقتصادية من قبضة الطبيعة والتوازن الحيوى فى المكان ، وأنهى تفرد الطبيعة فى وضع حد المصالحة ، الذى لا ينبغى الا يتجاوزه التعايش فى هذا المكان . وما من شك فى أن هذا التحول الانتاجى ، قد اباح واتاح للانسان أن يشترك باقتدار فى وضع واقرار حد المصالحة بينه وبين الطبيعة فى المكان .

- هذا ، وما كان في وسع الانسان أن يفعل ذلك من غير مبرر ، أو أن يباشر هذا الاشتراك الايجابي مع الطبيعة ، الا وهو يستشعر الندية ويتمتع بالكفاءة التي تشد أزره . ومن ثم يخوض الانسان المصارعة كلما دعت الحاجة ، من أجل هذا الهدف ، وهو ند في عنفوان القدرة على اعادة المواجهة وحسن مباشرة السلوك الايجابي ، وتسجيل الانتصار لذاته ومصلحته في المكان .

- وسواء كانت الحيلة التي اعتمد عليها ، أو الوسيلة التي استخدمها ، قد قوت قبضته وشدت ازره واسعفته في تسجيل الانتصار في مصارعة التحدى الطبيعي ، فمن المؤكد أنه لم يقدم ابدا على خوض هذه المصارعة ومباشرة السلوك الايجابي الا وهو في اكثر حالات الاطمئنان الى أن هذه الحيلة أو الوسيلة تضعه في موضع الندية الكاملة مع الطبيعة . بل قل أنه لم يقدم بالفعل الا وهو يضمن مقومات الانتصار الحقيقي على التحدى الذى يواجهه في المكان والزمان . بل ما كان في وسعه ابدا أن يخسر جولة المصارعة حتى لا يدفع ثمننا غاليا لهذه الخسارة .

- واستشعار جدوى الندية ، شرطا مسبقا وضروريا في المواجهة بين الطبيعة والانسان ، وممارسة السلوك الايجابي في المصارعة ، أو مباشرة السلوك السلبي هروبا من المصارعة ، يعنى تأكيد حق الانسان في الاختيار. بمعنى ان كان يعرف الانسان كيف يختار ولماذا ومتى يخوض غمار المصارعة لكي ينتصر لحساب التعايش في المكان ، وكيف يختار ولماذا ومتى يمتنع عن خوض المصارعة لكيلا يقهر التعايش ويفقد سيادته في المكان . وقل - بكل اليقين - أن من يملك حق الاختيار ويكون في وسعه أن ينازل أو أن لا ينازل الطبيعة ، لا يترك لها حرية أن تفرض عليه أو أن يمثل لها ويطاوعها من غير حدود .

- وربما كان من شأن الطبيعة أن تعلن عن التحدى في المكان وتجهز به ، وأن تجهز الحلبة للمصارعة ، وان تستدعى الانسان الى الحلبة لكي تنازله ، ولكن يبقى للانسان دائما وفي كل مكان حق الاختيار . وهو الذى يختار المواجهة الايجابية أو السلبية . وهو الذى يختار الوسيلة أو الحيلة التي يعتمد عليها ويستخدمها استخداما مناسباً في هذه المواجهة . بمعنى أنه ما كان ابدا لكي يطاوع الطبيعة وتفرض عليه ، بقدر ما كان في وسعه أن يطوعها ويعرف كيف تطاوعه في المكان . ويضع الانسان بموجب هذا التطويع أو قل يشترك في وضع شروطه لمصالحة بينه وبين الطبيعة في المكان والزمان .

- ويكفل انتهاء المصارعة في المكان والزمان ، وضع بنود المصالحة التي يرضى عنها الطرفان . ويتحدد بموجب هذه البنود حد المصالحة بين الطبيعة والانسان . ويضمن هذا الحد التوازن الامثل بين الندين ، الطبيعة وهي تضبط وتنضبط في جانب ، والانسان وهو يضبط وينضبط في جانب آخر . ويعبر اقرار المصالحة ووضع هذا الحد ، في بيان واضح عن مبلغ انتصار الانسان بموجب الندية لحساب التعايش في المكان والزمان .

- هذا ، ويؤمن حد المصالحة الذي تبتنى في اطاره قواعد انتصار التعايش ، حضور الانسان في المكان . وهل أروع من أن تمضي حركة الحياة على الدرب وهي آمنة ومطمئنة ، في اطار التشكيل الاجتماعي ، وبموجب الوسيلة الحضارية ، الى الهدف الاقتصادي ؟ . وما من شك في أن التعايش المنتصر في المكان والزمان ، لا يتبغي ما هو أهم من الهدف الاقتصادي لحساب حضور الانسان في ربوع المكان . بل ولا شيء يحافظ على ويكفل ويؤمن هذا الهدف في اطار العلاقة بين الانسان والطبيعة اهم من حد المصالحة بينهما . ويحافظ هذا الحد - كما قلنا - على التوازن بين ضبط متبادل ، تحسبا وحرصا على علاقة الندية بينهما في المكان والزمان .

- وينبغي أن ندرك ونستوعب جيدا مفهوم الندية وعلاقة الندية بين الطبيعة والانسان ، لكي نفهم ؛
أولا : معنى ومغزى وجدوى الضبط البشري في مقابل الانضباط الطبيعي .
ثانيا : معنى ومغزى وجدوى الضبط الطبيعي في مقابل الانضباط البشري .

- ومن ثم ندرك جيدا جدوى المصالحة التي تفضي اليها المصارعة بين الانسان والطبيعة في المكان والزمان . كما ندرك بالضرورة جدوى حد المصالحة الذي ينسق بين الضبط الطبيعي والضبط البشري في مقابل الانضباط البشري الانضباط الطبيعي . وفي الوقت الذي توفر فهي هذه المصالحة حد الأمن والاطمئنان ، لحساب التعايش في المكان والزمان ، لا يجوز أن يتجاوز الضبط البشري في مقابل الانضباط الطبيعي ، أو أن يتجاوز الضبط الطبيعي في مقابل الانضباط البشري ، الحد الأمثل الذي تفرضه وتفرض اليه بنود المصالحة المتفق عليها بين الطبيعة والانسان .

- وهذا معناه - بكل الصدق - أن الطبيعة والانسان يشتركان معا وهما ندان في المصارعة . كما يشتركان ليس فقط بنود المصالحة و اقرار النتائج التي تفضي اليها المصارعة ، بل في رسم الحد الذي تستوجبه هذه المصالحة في المكان والزمان . ويسهان معا بعد ذلك كله ، في حراسة هذا الحد ، وفي التصري لأي تجاوز يبيده طرف ، عدوانا على حسب الطرف الآخر وعلى غير ذاته . ومثل هذا العدوان لا يعني غير الخروج على موجبات الضبط والانضباط المتبادل في المكان .

- ونجاح طرف من هذين الطرفين في هذا الخروج وتجاوز حد المصالحة ، هو اعلان صريح ، يجهر بمعنى انقضاء أمد وصلاحيه وسريان مفعول المصالحة بينهما . ويبدو وكأن الطرف الذي اصطنع هذا التجاوز ، واخترق بموجبه حد المصالحة في المكان يرتكب حماقة . ومع ذلك فهو قد تهاى لجولة جديدة من الصراع ، ويبادر الى استدعاء الطرف الآخر الى الحلبة ، لكي يتصارع الانسان والطبيعة في المكان من جديد . وتفضي المصارعة في كل جولة الى مصالحة واتفاق جديد على حد جديد للمصالحة بين الطبيعة والانسان .

- ونذكر النهر - على سبيل المثال - وهو جزء لا يتجزأ من الطبيعة في المكان . ويفيض النهر ويغيض الماء فيه . ويعربد النهر ويعبث ما شاء ان يكون عليه النظام المائي الذي يتحقق بموجبه الجريان والايراد الطبيعي فيه . ونذكر الانسان الذي يقترب بحذر شديد من هذا النهر . ويتلمس الانسان السيطرة على الجريان في هذا النهر وضبطه . بل هو يطلب بالحاح الانتفاع بموجب هذا الضبط من الايراد المائي المنضبط في النهر .

- ومن أجل هذا الهدف ، يبادر الانسان الى الحلبة ومعه وسيلته الحضارية المناسبة لحاجة العصر . ويستدعى الانسان النهر الى هذه الجولة من جولات المصارعة لكي ينازله . وتدور المصارعة بين الانسان والنهر . ويسجل النهر أقصى درجات العصيان والتمنع ، ويسجل الانسان أقصى ما تصل اليه وسيلته الحضارية من الانتصار على هذا العصيان وكبح جماح التمتع .

- ولا تنفص هذه المصارعة الا بعد أن يسجل الطرفان الانسان والنهر بنود المصالحة بينهما . بل هما يتفقان على حد المصالحة الذي يجسد أقصى ما يصل اليه

الضبط البشري في مقابل الانضباط الطبيعي ، واقصى ما يلتزم به الانضباط البشري في مواجهة الضبط الطبيعي . ومن ثم يجسد هذا المثل الذي يتكرر في اكثر من مكان معنى الاسهام المشترك في صياغة المصالحة في اطار الضبط والانضباط المتبادل ، وفي السهر على حراسة الحد الذي يوضع بناء على هذه المصالحة بين الطبيعة والانسان ، في المكان والزمان .

- ونذكر الحافة الجبلية أو الجبل - على سبيل المثال - وهي جزء لا يتجزأ من الطبيعة الوعرة في المكان . وتعلو وترتفع هذه التضاريس وتملأ الحيز تضرسا ووعورة . ويؤثر هذا التضرس ما شاء أن يكون عليه نظام التكوين التضاريسي على خصائص الارض في المكان . ونذكر الانسان الذي يقترب بكل الحذر من هذا التضرس الوعر . ويتلمس الانسان السيطرة على الارض . بل هو يطلب بالحاح حق الانتفاع بحق. التعايش في ربوع المكان .

- ومن أجل هذا الهدف ، يبادر الانسان الى الحلبة ومعه وسيلته الحضارية أو حيلته الماهرة المناسبة لحاجة العصر . ويستدعى الانسان هذا التضرس الوعر الى هذه الجولة من جولات المصارعة لكن ينازله . وتدور المصارعة بين الانسان والجبل أو الكتلة الجبلية . ويسجل الجبل اقصى درجات التمتع والعصيان والتحدى . ويسجل الانسان اقصى ما تصل اليه وسيلته الحضارية من الانتصار على هذا العصيان وكبح جماح التحدى .

- ولا تنفص هذه المصارعة بين الندين ، الا بعد أن يسجل الطرفان الانسان والجبل بنود المصالحة بينها . وتوضع بموجب هذه المصالحة على سبيل المثال المدرجات التي تبطل مفعول الانحدار الجبلى الوعر لحساب الزراعة ، أو الاتفاق والجسور التي تبطل مفعول التضرس لحساب المرور وامتداد الطرق . ويتفق الطرفان على حد المصالحة الذي يحدد اقصى ما يصل اليه الضبط البشري في مقابل الانضباط الطبيعي ، واقصى ما يلتزم به الانضباط البشري في مواجهة الضبط الطبيعي . ومن ثم يجسد الضبط والانضباط المتبادل . كما يجسد معنى السهر على حراسة هذا الحد الذي يوضع بناء على هذه المصالحة بين الطبيعة والانسان ، في المكان والزمان .

- وصحيح ان هذا الاسهام المشترك من جانب الطبيعة والانسان في صياغة

المصالحة لا يبتنى على شىء غير الندية بينهما . وصحيح أن السهر على حراسة المصالحة وحدها الموضوع لحساب الطرفين ، لا يتأتى الا فى اطار الضبط والانضباط المتبادل بينهما فى المكان والزمان . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن التوازن الذى تعلن عنه بنود المصالحة ويحافظ عليه التوازن بين الضبط والانضباط المتبادل ، هو الذى يكفل التعايش ويؤمن ويبقى عليه مطمئنا فى المكان والزمان .

- ومن شأن الطبيعة وهى تشترك فى املاء بنود المصالحة أن تتنازل وتطاول الانسان الذى يتحايلى ويعرف كيف يطوعها . ومن شأن الانسان وهو يشترك فى املاء بنود المصالحة ايضا ، أن يكسب لحسابه وقلما يتنازل من غير أن يضيف شيئا الى مكاسبه . والتنازل فى مقابل عدم التنازل من غير مكسب ، يحدد جيدا من الذى ينتصر ومن الذى يطوع ومن الذى يطاول ومن الذى يكسب فى نهاية المطاف على حساب من . بل قل ان هذا التصور ، يبين بوضوح من الذى يطوع ، ومن الذى يطاول فى المكان والزمان ، ومع ذلك يبقى الذى يطوع يضبط وينضبط ، ويبقى الذى يطاول يضبط وينضبط ، فى اطار علاقة الندية والالتزام المتبادل بين الطبيعة والانسان .

حد المصالحة ودواعى التغير

- صحيح أن حد المصالحة فى المكان ، بين الطبيعة والانسان ، حد يستوجب العناية من الجانبين . وصحيح أن الطبيعة والانسان ، يسهران على حراسة هذا الحد والمحافظة عليه . وصحيح أن التعايش فى ربوع المكان الذى يطمئن الى انتصار الانسان ، لا يمضى قدما وهو مطمئن ، من غير العناية بهذا الحد والمحافظة عليه ، فى اطار ما تمليه بنود المصالحة بين الطبيعة والانسان . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن يكون التجاوز ونتوقعه من جانب اى طرف من هذين الطرفين .

- ويخترق هذا التجاوز الذى نتوقعه لسبب أو لآخر ، حد المصالحة اختراقا مباشرا . وينهى هذا الاختراق أو يفض المصالحة بين الطبيعة والانسان فى المكان . وعندئذ تبدأ المصارعة بين الطرفين فى جولة جديدة من جديد . وتدور وتجرى أحداث هذه المصارعة ، من اجل مصالحة جديدة وحد جديد للمصالحة فى المكان .

- ويضع الطرفان ، الطبيعة والانسان ، في اعتبارهما ابعاد هذا التجاوز أو الاختراق الذى يفرض المصالحة ، ويفرض عليهما العودة من غير تردد أو من غير تحفظ الى جولة من جولات المصارعة . ووضع حد للمصالحة بينهما من جديد بناء على النتائج التى تسفر عنها المصارعة ، لا يعنى بالضرورة العودة الى نفس حد المصالحة الذى انهار . بل يكون الحد غير الحد ويتأتى التغير فى كل مرة ، يعنى أن حد المصالحة حد متغير وليس ثابتا . ويكون هذا التغير لحساب طرف وعلى حساب الطرف الآخر . ويملك كل طرف فى اطار الندية دواعى التغير . وامتلاك كل طرف دواعى التغير شئ ، وقدرة كل طرف على حسن استثمار هذا التغير لحسابه وعلى حساب الطرف الآخر شئ آخر .

- هذا ، ومن حق من يتنازل من جانبه لحساب المصالحة ، أن يرجع عن هذا التنازل ، وينقض بنود المصالحة مع الطرف الآخر . ومن حقه ايضا أن يعيد النظر فى هذه المصالحة ، ويتعمد اختراق حد المصالحة وتدميره من غير تحفظ أو من غير اكتراث بحق الطرف الآخر . وفرض المصالحة وتدمير حد المصالحة لا يفرض علاقة الندية بين الانسان والطبيعة الى الابد ، بل يؤدى الى البحث عن مصالحة جديدة وحد غير الحد الذى يدمره تمرد اى من هذين الطرفين فى المكان .

- وعندما تضرب الهزات الزلزالية - مثلا - المكان حيث كانت المصالحة بين الطبيعة والانسان ، تستخدم الطبيعة هذا الحق لكى تنهى التنازل من جانبها لحساب المصالحة . وتتعمد الهزات الزلزالية عنصر المباغته ، لكى تسجل الغدر واهدار حد المصالحة والرجوع من غير تردد فى بنود الاتفاق وسريان مفعول هذه المصالحة فى المكان ، لبعض الوقت ، طال هذا الوقت أم قصر . وتدمير حد المصالحة المفاجيء ، هو تراجع مؤكد عن التنازل الذى كان قد اكتسب الانسان بموجبه ، حق تأمين التعايش وحضوره فى المكان . وهو ايضا اذار الطبيعة الذى يجسد هذا التمرد على مكتسبات التعايش فى المكان والزمان .

- هذا ، ومن حق من يكسب بمقتضى بنود المصالحة لحسابه ، أن يتطلع الى مكاسب اكبر لحساب التعايش فى المكان . بل ومن حقه أن ينقض بنود المصالحة مع الطرف الآخر ، وأن يعيد النظر فى جدوى حد المصالحة ، وأن يستشعر الحاجة وتدعوه الضرورة الى تعديل جوهرى فى بنود المصالحة بينه وبين الطبيعة . ويتعمد

الانسان وهو الطرف صاحب الحق المكتسب بموجب المصالحة ، أن يتراجع عن أو أن يعدل عن احترام حد المصالحة ، فيخترق هذا الحد أو يتجاوزه ، من غير تحفظ ودون اكتراث بحق الطرف الآخر . وفرض هذه المصالحة وتدمير حد المصالحة ، لا يفض مرة اخرى علاقة الندية بين الانسان والطبيعة الى الابد ، بل يؤدي الى البحث في اطار المصارعة من جديد ، عن المصالحة الجديدة وعن الحد الجديد لهذه المصالحة بينها في المكان .

- وعندما يعدل انسان مثلاً في اسلوب تقوية الجسور على جانبي النهر ، المعمول به لاتقاء خطر الفيضان العالي ، يستخدم حقه في فض المصالحة . ومباشرة اسلوب التخزين وبناء السد في عرض الوادي لترويض الجريان والسيطرة على مناسيبه المتفاوتة وضبطها ، يعبر عن حق الانسان في استخدام حقه في تعديل بنود المصالحة . وتدمير حد المصالحة وتجميد سريان مفعول بنود المصالحة ، هو تطلع مؤكد الى مزيد من الكسب في مقابل التنازل الذي ينبغي أن توافق عليه الطبيعة ، في المكان . وهذا تنازل من جانب الطبيعة لحساب التعايش في المكان والزمان .

- وهكذا ، تملك الطبيعة الرجوع والتراجع والانقضاض الى الحد الذي ينتكس بموجبه الوضع السائد في المكان والزمان ، بموجب المصالحة مع الانسان . ويملك الانسان بدوره التجاوز والاختراق والنقض الى الحد الذي ينتهي بموجبه الوضع السائد في المكان والزمان بموجب المصالحة مع الطبيعة . وفي الحالتين ، يستدعى الطرف الذي ينقض وهو الطبيعة التي تجيد الغدر والمباغته أو الذي ينقض وهو الانسان الذي يطلب التغيير ، الطرف الآخر من غير تأخير ودون تحفظ الى المصارعة في جولة جديدة . ويضيف حق كل من الطبيعة والانسان في طلب التغيير والاعداد لهذا التغيير بعدا مهما في مفهوم الندية بينها .

- وتدور المصارعة ، من أجل التغيير وترسيخ المصالحة من جديد ، بين الطبيعة وهي تملك قوة الفعل والتأثير والضبط في المكان من ناحية ، والانسان وهو يملك قوة الوسيلة والحيلة ورد الفعل الضبط في المكان من ناحية اخرى . وبموجب الضبط والانضباط المتبادل في المكان ، يصل الطرفان الى محصلة هذه المصارعة ، ويتحدد حد المصالحة الأنسب بينهما .

- هذا ، واذا كان الانسان على بيئة من أمر الوسيلة التي يعتمد عليها في مواجهة الموقف ، ويعلم جيدا كيف تنتصر هذه الوسيلة له في هذه الجولة ، حتى يسيطر على وضع بنود المصالحة الجديدة بينه وبين الطبيعة في المكان ، فإنه يبادر الى الصراع ويثبت قواعد مكتسباته في المكان . ويبقى للانسان ايضا أن يتمتع عن خوض هذه الجولة ، لو استشعر ضعف الوسيلة وقلة حيلته وتخوف من أن تخذله ولا تنتصر لحسابه في المكان . عندئذ يفضل الانسان بموجب حق الاختيار الذي يحسب جيدا حساب الندية مع الطبيعة الانسحاب الفوري وتجنب المغامرة في المكان ، لأنه يتخوف من بطش الطبيعة .

- وبصرف النظر عن هذا الاحتمال الذي يثيره الافتراض وهو بعيد الاحتمال بالفعل ، تملك الطبيعة وملك الانسان في اطار علاقة الندية دواعي التغير . وتمثل دواعي التغير في قبضة الطبيعة سلاحا تشهره الانسان متغيرات الخصائص الطبيعية في المكان . ويستوي في ذلك أن تكون هذه المتغيرات بطيئة أو مفاجئة . وتمثل دواعي التغير في قبضة الانسان وسيلة يحسن توظيفها في مواجهة الطبيعة ومتغيراتها في المكان . وقد يملك الانسان اكثر من وسيلة تشد ازره وهو يخوض المصارعة ويرسخ قواعد الانتصار .

- ويعود الطرفان بموجب هذه المصارعة التي لا يتنازل فيها الانسان عن الانتصار ، الى وضع بنود مصالحة جديدة . وتسجل هذه البنود - في الغالب - بعض التنازلات الطبيعية وهي صاغرة . كما تسجل مكاسب ومكتسبات الانسان وهو منتصر بوسيلته الحضارية . ويعد الطرفان من جديد بناء على ما تقرر في هذه المصالحة ، وضع الحد الجديد للمصالحة بين الطبيعة والانسان في المكان . ويجنى التعايش في المكان والزمان ثمرات هذا الحد الجديد ، ويلتزم به .

- ولا علاقة بالتأكيد بين هذا الحد الذي يتفق عليه الطرفان بموجب هذه المصالحة الجديدة في المكان ، وحد المصالحة الذي كان قد انهار أمام تراجع الطبيعة عن بعض تنازلاتها لحساب التعايش ، أو تطلع الانسان الى زيادة مكتسباته على حساب الطبيعة ، لحساب التعايش في نفس المكان . وهذا هو المعنى الحقيقي لتغير حد المصالحة بين الانسان والطبيعة في المكان ، من عصر الى عصر آخر .

- وصحيح أن ملامح الاسهام المشترك بين الطبيعة والانسان وهما أنداد ، تبدو واضحة المعالم وكاملة البيئات . وصحيح أن هذا الاسهام المشترك يظلل التعايش في اطار المصالحة بينهما ، ويصطنع التغير الفعلى في حد المصالحة المكاسب لحساب التعايش من عصر الى عصر آخر . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن هذا التغير في حد المصالحة بين الانسان والطبيعة ، يتجه في مضمونه الى احد احتمالين .

- في الاحتمال الأول ، يجسد التغير مكسب وانتصار الانسان وتسجيل الاضافات الى حساب الانسان خصما من حساب الطبيعة وتنازلا من جانبها .

- وفي الاحتمال الثانى ، يجسد التغير مكسب وانتصار الطبيعة وتسجيل الاضافات الى حساب الطبيعة خصما من حساب الانسان وانتقاصا من حقوقه .

- ومع ذلك يكون احتمال الانتقاص من حقوق الانسان والاضافة الى حساب الطبيعة احتمالا غير وارد بالفعل الا في حالات الشذوذ والاستثناء . ذلك أن الانسان يمتلك كما قلنا حق الامتناع عن خوض المصارعة لو استشعر خذلان الوسيلة التى يعتمد عليها له . بل قل انها الورقة الاخيرة التى يلعب بها ويحتذى بموجبها من خوض المصارعة وهو غير مطمئن الى كامل لياقته ونديته ، في حلبة الصراع المنصوبة في المكان .

- وفي الوقت الذى تكون فيه انتفاضة الطبيعة والتمرد على حد المصالحة مع الانسان ، انتفاضة غدر وخيانة ، تباغت التعايش وتنقض الانتفاض المفاجيء الذى يدمر هذا الحد ، تبدو انتفاضة الانسان على هذا الحد انتفاضة رزينة ومدروسة ومعتقلة . بل تبشر هذا التغير دون انتفاض مدمر أو دون عدوان متعمد يدمر ويخرب لمجرد التخريب وإشاعة الدمار ، في المكان . ولا وجه للمقارنة أبدا في اطار علاقة الندية بين الانسان والطبيعة ، بين التغير الذى يدمر ويخرب وهو ما تفعله الطبيعة ، والتغير الذى يعمر ويطور وهو ما يفعله الانسان في المكان .

- والحساب الرزين الهادىء قبل الاقدام على نقض المصالحة مع الطبيعة ، والعمل بموجب الوسيلة الحضارية الأفضل في مواجهة الطبيعة ، وتسجيل الانتصار وابتغاء الحد الجديد للمصالحة ، هو الذى يضع الاجتهاد البشرى الرشيد في المستوى

الاعلى من الندية . بل قل انه وسيلة الندية التى ينبغى أن يتمتع بها الانسان ، عندما يقدم على انتهاء أو فسخ المصالحة فى مرحلة ، ويصارع من أجل مصالحة جديدة افضل فى مرحلة اخرى فى المكان . ومن غير هذه الوسيلة الحضارية التى تؤمن للانسان مستوى الندية الاعلى فى المصارعة ، وتضمن له اقصى درجات الفوز ، يتردد بل يحجم ويتربص الانسان الفرصة للأقدام على خوض هذه المصارعة .

- وعلى ضفاف النيل الادنى فى ربوع مصر ، كم صال وجال النهر وكم هدد وعربد . ولقد اقدم الانسان على ترويضه وكبح جماحه وضبطه ، حتى يأمن الاستقرار على حضوره ويمضى التعايش مطمئنا على الدرب . وكم طال أمد هذه المصالحة بين الانسان والنهر ، واستثمر التعايش هذا الانضباط فى اطار حد المصالحة . ولم يقدم الانسان ابدا على نقض بنود هذه المصالحة على مدى بضعة الآلاف من السنين . بل قل ان الانسان على مدى الاجيال المتعاقبة ، قد حافظ وسهر على حراسة حد هذه المصالحة . وتعامل مع النهر التعامل الرزين ، فى اطار التعود الذى يجاوب بنود هذه المصالحة .

- وما نقض الانسان هذه المصالحة أو تجاوز حد المصالحة ، الا عندما أمسك بزمام وسيلة حضارية أنسب فى وقت متأخر . ويمثل بناء القناطر على مجرى النيل وتشغيلها نقطة تحول مثيرة ، أسفرت عن مصالحة جديدة ، وحد جديد للمصالحة . ويمثل بناء السد فى عرض وادى النهر وتشغيله حسب نظام التخزين السنوى وتسوية الايراد الطبيعى السنوى ، نقطة تحول أكثر أثارة ، أسفرت عن مصالحة جديدة وحد جديد للمصالحة . ويمثل بناء سد اسوان العالى وتشغيله حسب نظام التخزين على المدى الطويل ، نقطة تحول ثالثة أكثر واعظم إثارة ، أسفرت عن مصالحة جديدة وحد جديد للمصالحة مع النهر .

- ولا يخضع الفاصل الزمنى بين مصالحة قديمة تصبح غير ذات موضوع ، ومصالحة جديدة تقوى بموجبها قبضة الانسان لقياس معين فى المكان . ولكنها الوسيلة الحضارية وحدها هى التى تؤهل الانسان وتحفزه وتشد أزره لكى يقدم على نقض المصالحة القديمة ، ويصارع من أجل وضع بنود مصالحة جديدة افضل . وما من شك فى أن تراكم الخبرات المكتسبة على المدى الطويل ، هى التى تعجل بنقض المصالحة من جانب الإنسان . وقد تجعل الانسان أكثر من ند ، منتصر

ويطور انتصاره بسرعة مذهلة ، في حسابات التغير ، من أجل التعايش الأفضل في المكان .

- وفرض المصالحة بهذه الصورة المتعجلة ثلاث مرات متوالية بين الانسان والنهر ، واستدعاء النهر الى المصارعة في كل مرة ، يعنى بالضرورة وضع بنود المصالحة الانسب وتغير حد المصالحة لحساب التعايش . كما يعنى ايضا توقيع النهر على بنود المصالحة ، وحراسة الانسان والنهر معا حد هذه المصالحة المعمول به في كل مرة . ومع ذلك لا يعنى ذلك ابدًا استسلام النهر للانسان حتى يفعل به ما يشاء ، ولكن يكون التصالح لكي يضبط الانسان النهر وينضبط ، ولكي ينضبط النهر ويضبط .

- وهذا معناه أن انضباط النهر لا يفقده قدره على الضبط ، وأن ضبط النهر لا يستدعى افلات الانسان من الانضباط به . وبموجب هذا الضبط والانضباط المتبادل بين الانسان والنهر ، يمكن أن ندرك لماذا وكيف يتململ النيل بعد الفراغ من بناء وتشغيل سد أسوان العالى . ويبدو وكأن النهر لم يوقع بعد على بنود المصالحة ، أن كان لا يتحمل ضغوط البنود التي يتعين عليه الالتزام بناء على هذه المصالحة .

التعايش ومحصلة التغير في حد المصالحة .

- يعكس التعايش في المكان والزمان ، الصورة الحقيقة لحضور الانسان وقدراته ومهاراته وارادته ومستوى أدائه في التعامل مع الارض ، في اطار حد المصالحة بينه وبين الطبيعة . وفي وسع الطبيعة وهى التى من طبعها الغدر والمباغته والتغير أن تنقض على المصالحة وتفضها . وفي وسع الانسان وهو الذى من طبعه التطلع وطلب التغير أن ينقض على المصالحة ويفضها . ويهتز التعايش في الحالتين عندما يفض أحد الطرفين المصالحة . بل هو لا يهدأ الا بعد تكون المصالحة من جديد في المكان .

- وتكون هذه المصالحة الجديدة بعد الصراع الذى يأخذ مجراه ويتحدد مداه بين الطرفين . ويشارك الطرفان في وضع واملاء وترسيخ بنود هذه المصالحة

الجديدة . ومن البديهي أن يتغير وضع حد المصالحة . وهو لا يكون ابداً على نفس النسق الذي كان عليه هذا الحد لحساب الطبيعة وعلى حساب الانسان الذي يتنازل . ويكون التغير احيانا اخرى لحساب الانسان وعلى حساب الطبيعة التي تتنازل . فهل يترتب بالفعل على هذه التنازلات مكاسب ينتعش بموجبها التعايش أو خسائر يتضرر بها التعايش في المكان ؟

- هذا ، ومن يتوجه الى المكان الذي تتمرد فيه الطبيعة وتفض المصالحة بينها وبين الانسان ، بعد هزة زلزالية ، أو تدفق سيل جارف أو تفجر ثورة بركان مباغته ، يقدر حجم الكارثة في التو واللحظة ، ويستشعر الخسارة . وقد تهزه الفجعية المروعة ، اشفاقا على حضور الانسان في المكان والتعايش الذي يفقد كل شيء ، ويتنباه الدهول . ولكنه يعود الى رشدة ويتماسك ويستشعر ويلبى نداء الحياة .

- ويتعجل الانسان بعد امتصاص الصدمة في هذا المكان الاستجابة لنداء الحياة . ويبادر حتما الى المصارعة التي يرى فيها شيئا مهما لحساب التعايش من جديد في نفس المكان . وفي وسع من يرقب هذه المصارعة بين الانسان الذي يبادر الى مواجهة الطبيعة من ناحية ، والطبيعة التي اطاحت بحد المصالحة ودمرت حق التعايش من ناحية اخرى ، ان يشهد في هذا المكان الفعل ورد الفعل وأن يتبين الضبط والانضباط المتبادل . بل قل يتقصى حقيقة الاسهام المشترك من جديد في وضع بنود مصالحة جديدة في المكان . فهل هناك مجال للتنازل من جانب الانسان ؟ ولماذا التنازل ؟

- وفي اعتقاد الاجتهاد الجغرافي الذي يشهد ويعاين هذه المصارعة ، ان يستشعر ضراوة الفعل الذي دمر المصالحة ، وان يستشعر ايضا كفاءة رد الفعل الذي يشارك في بناء قواعد المصالحة الجديدة . ولا يرد ابداً في الرؤية الجغرافية ، تصور اى احتمالات ملتزمة ، تدعو الانسان الى التنازل . ويبادر الانسان الى ابتناء هذه القواعد بناء على ما يمتلكه من وسائل حضارية متطورة ، وعلى ما اكتسبه من خبرات اثناء وقوع الصدمة وتدمير قواعد المصالحة القديمة المبادة .

- ولا يجد الانسان نفسه في مثل هذه المبادرة ، حيث لا تفرط في حسن استثمار الخبرة المكتسبة أو في حسن توظيف الوسيلة المتطورة ، مضطرا الى التنازل .

بل هو يسترد الثقة في نديته للطبيعة ويبدو في الوضع الافضل الذى يبيح له أن يسيطر على الموقف فى اطار هذه المصارعة ، وأن يستعيد الى قبضته مقومات السيادة . وقل انه لا يتنازل ، ويغتنم الفرصة لكى تكون بنود المصالحة هى الانسب ، ولكن يبنى حد المصالحة الذى يحقق الاضافة الى حسابه على حساب الطبيعة فى المكان . ومن ثم لا مجال لتنازل الانسان ابدا ، الا فى حالات الاستثناء الشاذ الذى ينبغى التجاوز عنه واسقاطه من الحساب .

- واطافة الى اى مكاسب أو مكتسبات يحققها الانسان فى جولة من جولات الصراع بينه وبين الطبيعة ، الى الرصيد الانسانى الذى يكرس فى خدمة التعايش ، لا يضيعها انهاء أو فض أجل المصالحة . بل ولا يبددها الدخول فى جولة صراع جديدة فى المكان . بمعنى أن هذه الاضافة الى الرصيد الانسانى المعمول به لحساب التعايش فى المكان ، لا يمكن أن يفرط فيها الانسان ابدا ، ولا يتنازل عنها . بل قل انه يبقى عليها أو قد يطورها الى الافضل ، فى اطار التعايش الذى يبدأ من جديد بعد الانتهاء من المصارعة ، ووضع حد المصالحة بينه وبين الطبيعة من جديد .

- والمحافظة على هذه المكتسبات ضمن الرصيد المعمول به وعدم التفريط فيه أو التنازل عنه ، يعنى الحرص على أهم مقومات الندية فى مواجهة الطبيعة . كما يعنى الاضافة التى تقوى قبضة الانسان وتشد أزر نديته فى الصراع . وتقوى هذه الاضافات فى كثير من الاحيان عزم الانسان على فض المصالحة ، من أجل ابتناء قواعد مصالحة جديده ، أو انجاز التغير الذى يجاوب التطلع الى الافضل . كما تحفز اقدامه احيانا من غير تردد على استدعاء الطبيعة الى جولة مصارعة ، ويعرف كيف ينهيها لحساب التعايش فى الصورة الجديدة الافضل . وقد تقوى صموده أحيانا اخرى ، عندما تغدر به الطبيعة وتفض المصالحة معه فى المكان والزمان ، ويتعين عليه قبول التحدى والدخول فى جولة المصارعة ، التى تفرض عليه . ويكون اقدامه وقبول التحدى من غير تردد ، لأنه يعرف كيف ينهيها لحساب التعايش ايضا ، فى الصورة الجديدة الافضل من جديد .

- والتحول - على سبيل المثال - من مرحلة كان الانسان معتمد فيها ، فى اطار المصالحة بينه وبين النهر وترويضه أو تطويعه ، على تهذيب المجرى والعناية بالجسور وتقويتها لكبح جماح الفيضان ، الى مرحلة اخرى يعتمد فيها الانسان فى اطار

مصالحة جديدة بينه وبين نفس النهر وترويضه أو تطويع جريانه الشرس ، على ضبط الجريان والتحكم فى مناسبيه ، لا يعنى بالضرورة الكف عن تهذيب المجرى أو الاقلاع عن تقوية الجسور ، بل يعنى انه يصبح فى وسعه أن يجمع بين وسائل كثيرة تشد أزر ندية الانسان فى تطوير المصالحة مع النهر لحساب التعايش . كما يعنى تفصيح وزيادة الرصيد الذى يمتلكه الانسان حق استخدامه والاعتماد عليه فى تقوية القبضة التى يسيطر بموجبها على النهر ويطويعه لحساب التعايش الأفضل على ضفافه .

- والتحول - على سبيل المثال ايضا - من مرحلة كان الانسان يعتمد فيها وفى اطار المصالحة بينه وبين الطبيعة التى تصطنع حاجز المسافة بين المكان والمكان الآخر ، على قدرته الذاتية سيرا على الاقدام ، الى مرحلة ثانية وثالثة ورابعة ، يعتمد فيها الانسان وفى اطار مصالحات يتوالى بموجبها ترويض واستخدام الحيوان ، وابتداع العجلة واستخدام العربى ، واختراع الطائرة وركوب الهواء ، لا يعنى ابداء الاقلاع عن استخدام وسيلة لدى معرفة واستخدام الوسيلة الافضل . بل يعنى انه يوسع فى كل مصالحة ويغير ويطور ويضيف الى رصيده وسائل كثيرة تشد أزر نديته . ويبقى من حق الانسان دائما أن يستخدم الوسيلة الانسب ويعتمد عليها فى الاقدام على اسقاط حاجز المسافة بين المكان والمكان الآخر ، وفى اطار الضبط والانضباط المتبادل الذى يتحدد بموجبه حد المصالحة المتغير من مكان الى مكان آخر ومن عصر الى عصر آخر .

- ومحصلة التغير فى حد المصالحة بين الانسان والطبيعة ، التى تضيف فى الغالب اضافات جديدة لحساب الانسان ، بعد أن يصارع ويشترك مع الطبيعة فى وضع وصياغة بنود المصالحة ، هى بالقطع المسؤلة عن هذه الاضافات . ومن شأن هذه الاضافات أن تتوالى وتنمى الرصيد الذى يتقن الانسان العناية به والمحافظة عليه وتطويره لحساب التعايش فى المكان ، ولحساب تأمين هذا التعايش ومصيره فى المكان من عصر الى عصر آخر .

- وتبدو هذه المحصلة فى اطار الرصيد الانسانى المتراكم لحساب التعايش فى كل مكان ، مسئولة عن دعم وتقوية واستنفار ندية الانسان التى يواجه بموجبها الطبيعة ويعرف كيف يتصر . ومن غير تصور مفهوم هذه الندية التى تنزه الرؤية الجغرافية وهى تطل وتتدارس العلاقة بين الانسان والطبيعة ، عن التحيز لأى من

هذين الطرفين ، وهما في حالة المصارعة أو وهما في حالة المصالحة ، لا يمكن أن يحقق ، أن ينجح الاجتهاد الجغرافى فى تقويم المصالحة بين الانسان والطبيعة وحدها المتغير فى الغالب لحساب التعايش فى المكان .

- ومن خلال التقويم الجغرافى الصحيح لهذه العلاقة وندية الانسان فى مواجهة الطبيعة ، لا ينبغى أن يبحث الجغرافى عن من الذى يطوع من أو عن من الذى يستسلم لمن . بل ينبغى أن يتلمس كيف تدعو الندية الى التعاون فى المكان بين الانسان والطبيعة ، وفى اطار حاجة الانسان الذى يطلب ولا يتنازل ، والطبيعة التى تجاوب وتتنازل .

- هذا ، ولا نقول مثلما يقول الحتميون أن الانسان هو ابن البيئة وصنيعتها . ولا نقول كما يقول الامكانيون أن البيئة هى من صنع الانسان ومدينة لمهارته وخبراته . ولكن نقول أنه بموجب الندية فى العلاقة بين الانسان والطبيعة ، فانها معا يشتركان فى صياغة توليفة البيئة . ويحسن الانسان فى هذا الاسهام المشترك احيانا ويحافظ على البيئة فى اطار المصالحة مع الطبيعة فى أحسن صورة لحساب التعايش . وقد يسيء الانسان فى هذا الاسهام المشترك احيانا اخرى الى حد تتضرر به البيئة سواء كان التضرر من جراء التلوث أو كان التضرر من جراء الاخلال بالتوازن الحيوى فى ربوعها .

- والأمن والأمان للتعايش الذى يجنى ثمرة المصالحة وترعاه الايدى والمهارة البشرية التى تحافظ وتعرف كيف تحسن الاشتراك مع الطبيعة فى المحافظة على البيئة فى المكان والزمان . والويل كل الويل للتعايش الذى يجور ولا يجنى ثمرة المصالحة مع الطبيعة ولا يعرف انه يتجنى على البيئة التى تحتويه أو أنه يرهق الطبيعة التى تصالحه فى المكان والزمان .

قائمة المصادر «العربية»

- ١ - حسن طه نجم وزملاؤه : البيئة والانسان الكويت ١٩٧٧ .
- ٢ - شاهر جمال أنما : جغرافية اليمن الطبيعية دمشق ١٩٨٤ .
- ٣ - صلاح الدين الشامى : دراسات فى النيل القاهرة ١٩٦٧ .
- ٤ - صلاح الدين الشامى : الجغرافية دعامة التخطيط الاسكندرية ١٩٧٢ .
- ٥ - صلاح الدين الشامى : الفكر الجغرافى سيرة وسيرة الاسكندرية ١٩٨٠ .
- ٦ - عبد الفتاح وهيبه : جغرافية الانسان الاسكندرية ١٩٧٥ .
- ٧ - فؤاد محمد الصقار : دراسات فى الجغرافية البشرية الكويت ١٩٧٣ .
- ٨ - محمد السيد غلاب : البيئة والمجتمع القاهرة ١٩٥٥ .
- ٩ - محمد السيد غلاب : الارض والتطور البشرى (ترجمة) القاهرة ١٩٥٩ .
- ١٠ - محمد السيد غلاب : الجغرافية فى القرن العشرين القاهرة ١٩٧٤ .
- ١١ - يسرى الجوهري : اسس الجغرافية البشرية الاسكندرية ١٩٧٥ .

قائمة المصادر «الأجنبية»

- 1 - Brunhes, J: Human Geograghy London 1952. (ترجمة)
- 2 - Bryan, P. : Man's Adaptation of Nature. London 1939.
- 3- Bowman, I: Geography in relation to social science, N.Y.1934. .
- 4 - Buckle,,: History of Civilization in England, London, Vol I 1957. Vol. II 1981.
- 5- Febvre, L.A. : A Geographical Introduction to history. London, 1950.
- 6 - Febvre, L.A.: La terre et la evolution humaine, Paris, 1924.
- 7- Lebon, J.H.C.: An Introduction of Human Geography London, 1952.
- 8- Semple, E: Influence of Geographic environment N.Y. 1911, London 1935.
- 9- Vidal de la Blache, B : principes de Geograhic Humaine, Paris 1925.
- 10 - Whit beck of Thomas : The Geographic Factor.
- 11 - Wooldridg S.W. Y East W. Y : The spirit and Perpose of Geography London 1956.
- 12 - Dicken, S.N. and Pitt, F.R. : Introduction to Human Geography N.Y. 1963.

صدر من هذه النشرة

- ١ - زراعة الواحة في وسط وشرق شبه الجزيرة العربية ترجمة الدكتور زين الدين عيد المقصود
- ٢ - اسس البحث الجغرفولوجي مع الاهتمام بالوسائل العملية المناسبة للبيئة العربية بقلم : الدكتور طه محمد جاد والدكتور عبد الله الغنيم
- ٣ - توطين البدو في المملكة العربية السعودية (الهجر) ترجمة : الدكتور عبد الله ابو عياش
- ٤ - اثر التصحر كما تظهره الخرائط ترجمة : الدكتور علي علي البنا
- ٥ - سكان ايران ، دراسة في التغير الديموجرافي ترجمة : الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي
- ٦ - القبائل والسياسة في شرقي شبه الجزيرة العربية ترجمة : حسين علي اللودي
- ٧ - سكان دولة الامارات العربية المتحدة بقلم : الدكتورة امل يوسف العذبي الصباح
- ٨ - السياسات السكانية في افريقية ترجمة : أ.د. محمد عبد الغني سعودي
- ٩ - اثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب أ.د. محمد رشيد القبيل
- ١٠ - نحو تصنيف مورفولوجي لمنخفضات الصحراء بقلم : دكتور صلاح الدين بحيري
- ١١ - مواد السطح في البحرين - مسح المصادر واهميته التطبيقية للتخطيط الاقليمي بقلم : أ.د. حسن طه نجم
- ١٢ - الطاقة والمناخ ترجمة الدكتور زين الدين عيد المقصود
- ١٣ - التطبيق الهندسي للخرائط الجيومورفولوجي بقلم : د. يحيى عيسى فرحان
- ١٤ - بعض عواقب الهجرة على التنمية الاقتصادية الريفية في الجمهورية العربية اليمنية
- ١٥ - البعثة العلمية الى شبه جزيرة مستدم (شمال عمان) ترجمة : أ.د. محمود طه ابو العلا
- ١٦ - نظام النقل العام والخدمات الترويجية في الكويت استاذ عبد الوهاب الهارون
- ١٧ - مدن الشرق الاوسط د. عبد الله ابو عياش
- ١٨ - تجارة الخليج بين المد والجزر في القرنين الثاني والثالث الهجريين ترجمة : د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي
- ١٩ - نظرات في الفكر الجغرافي الحديث بقلم : د. عطية القوضي
- ٢٠ - القوة البحرية السوفيتية بقلم : د. طه محمد جاد
- ٢١ - مشكلات التصحر في العالم الاسلامي ترجمة : أ.د. محمد عبد الغني سعودي
- ٢٢ - علم الجغرافيا دراسة تحليلية نقدية في المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي بقلم : د. زين الدين عيد المقصود
- ٢٣ - جغرافية الرفاه الاجتماعي عن : منهج جديد في الجغرافيا البشرية بقلم : د. محمد الفراء
- ٢٤ - مكان الخليج العربي في حضارة الشرق الادنى القديم تعريب : د. شاكرك خصبياك
- ٢٥ - الاستشعار من بعد في الشرق الاوسط تأليف : د. سليمان سعدون البدر
- ٢٦ - الارتباط المكاني تطويله ويرمجته وجوانب من تطبيقه ترجمة : أ.د. علي علي البنا
- ٢٧ - التطوير الحضري واستراتيجيات التخطيط في الكويت تأليف : د. حرب عبد القادر الحنيطي
- ٢٨ - دراسة تحليلية لخمس مجموعات من الاسر وفقا لتجربتهم في الهجرة د. عبد الله ابو عياش بقلم : عبد العزيز آل الشيخ

٢٩ - ضبط النسل أبعاده وأثاره الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية

- بقلم : د. حسن عبد القادر صالح
 ٣٠ - الموارد في عالم متغير (وجهة نظر جغرافية)
 ٣١ - الجغرافيا بين العلم التطبيقي والوظيفة الاجتماعية
 ٣٢ - الخصائص الجيومورفولوجية لنهر السهل الفيضي
 ٣٣ - التخطيط لمدن التنمية في الكويت
 ٣٤ - توطن صناعة الاسمدة الكيماوية في الوطن العربي ومستقبلها
 ٣٥ - التتابع الطباقى
 ٣٦ - جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط
 ٣٧ - علم الريافة عند العرب
 ٣٨ - الهجرة اليمنية الى امريكا نموذج من دورتيرت بالولايات المتحدة

ترجمة : محمد عبد الرحمن الشرنوبى
 ٣٩ - المرحلة الثالثة من الادارة الدولية لمائية نهر النيل

- ترجمة : د. زين الدين عبد المقصود
 ٤٠ - الصناعات البتروكيماوية في العالم العربي وامكانيات التنسيق بينها
 ٤١ - التغيرات المناخية وانتاج الغذاء
 ٤٢ - النظام الايكولوجي وجهة نظر جغرافية
 ٤٣ - الخصائص الشكلية ودلالاتها الجيومورفولوجية
 ٤٤ - المدينة والخدمات الهاتفية
 ٤٥ - نبذة عن تطور جزيرة بوبيان الكويتية في اواخر عصر الهولوسين
 ٤٦ - التوزيع المكاني لاحتياطات النقد العالمية
 ٤٧ - خريطة مورفولوجية لاقليم خور العديد : شبه جزيرة قطر
 ٤٨ - مشاهدات جغرافية في غربي الجزيرة العربية
 ٤٩ - اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر
 ٥٠ - رصد الظواهر الارضية والميتيورولوجية بالاقمار الصناعية تعريب : الدكتور محمد اسماعيل الشيخ
 ٥١ - السكان في اليمن
 ٥٢ - الزراعة في دولة الامارات العربية المتحدة
 ٥٣ - مظاهر الضعف الصخري وأثاره الجيومورفولوجية
 ٥٤ - الجيومورفولوجية : مجاها ومقياس الدراسة فيها وعلاقتها بالعلوم الاخرى
 ٥٥ - المصادر العربية لمصطلحات الاشكال الارضية
 ٥٦ - الاقمار الصناعية والمناخ
 ٥٧ - مدينة العقبة الموقع ومعطيات السكان الطبيعية
 ٥٨ - امكانيات التنمية الزراعية في سيناء
 ٥٩ - المستوطنات التوابع في الطرف الغربي لجبال نابلس تعريب وعرض وتعليق د. فاطمة العبد الرزاق
 ٦٠ - التخطيط الزراعي لمنطقة الوفرة
 د. محمد رشيد الفيل
 د. صبحي المطوع

- ٦١ - أثر الحرارة المتجمعة على غم ونضوج المحاصيل الزراعية في العراق د. علي حسين الشلش
- ٦٢ - التفسير الشرعي للتمدن د. وليد المنيس
- ٦٣ - جيمورفولوجية الهوات في الجبل الاخضر د. سميح عودة
- ٦٤ - زحف الرمال بمنطقة الاحساء يحيى ابو الخير
- ٦٥ - الحالة العامة للمساكن التي يعيش فيها الحاج بمدينة مكة المكرمة خلال فترة الحج غازي مكي
- ٦٦ - الهجرة بين النواة ومناطق الاطراف ترجمة : أ.د. احمد اسماعيل
- ٦٧ - التعدادات السكانية الحديثة : دراسة تطبيقية على دول الخليج العربي د. امل العذبي الصباح
- ٦٨ - البيئة العاملة للمدينة العربية خالد محمد العنقري
- ٦٩ - اضواء على مفاهيم الجغرافيا الاجتماعية والحضارية « الاجتاضية » د. عبد الله على الصنيع
- دراسة في الفكر الجغرافي د. نبيل سيد امباري
- ٧٠ - التغلغل البحري في ساحل القطري د. عبد الاله ابو عياش
- ٧١ - الجغرافيا والتخطيط د. طه محمد جاد
- ٧٢ - بعض مظاهر التعميم والتقريب في جمع البيانات الجيمورفولوجية وعليها
- ٧٣ - الجغرافيون والرحالون المسلمون للمستشرق م. ف. مينورسكي
- ترجمة : أ.د. عبد الرحمن حميدة
- ٧٤ - الاستغلال الزراعي في وادي فاطمة د. محمد عبد المجيد عامر
- بمنطقة مكة المكرمة . د. نصر الدين بدوي
- ٧٥ - بعض أوجه الاختلاف في رسم اسم المكان الواحد بحروف د. أسعد سليمان عبده
- اللغة العربية في المملكة العربية السعودية .
- ٧٦ - دراسة تحليلية لخريطة المضمون البيئي للتنمية د. فؤاد الصقار
- في السودان
- ٧٧ - الخصائص العمرانية لمدينة الاحدي د. أحمد حسن ابراهيم